مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

ربيع الثاني ١٤٣٨ هـ – يناير ٢٠١٧م

• «متفائل، الجزء الثاني»
• أوري أفنيري

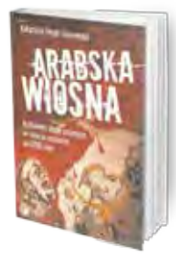

• «الربيع العربي»
• عدة مؤلفين

• «داؤنا يأتينا من بعيد»
• ألان باديو

• « رهبان الكنيسة وأباطرة المافيا»
• إيسايا سالِز

• « سبينوزا ودولوز»
• عدة مؤلفين

• «القيمة الاقتصادية للغة الإسبانية»
• عدة مؤلفين

• «واقع التواصل الاجتماعي»
• ماريا فيل

• «ثمة مخطئون في الإنترنت»
• آسيا كازانتسيفا

• «من الإمبراطورية إلى الجمهورية»
• ديريك روختوس

• «السعادة»
• بوب نيون

• هل الأيام القادمة أفضل أيام البشرية؟
• عدة مؤلفين

• كيف ستنتهي الرأسمالية؟
• لفولفانغ ستريك

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

تناولتُ في افتتاحيات العام الماضي من «ملحق مراجعات» بعضَ المصادر الأجنبيّة المتعلّقة بعُمان، ومعظمُها كانت مَصادرَ منشورةً باللغة الإنجليزية في حقَب تاريخية مختلفة شملتْ كتابات الرحّالة والمؤرخين والسّياسيين. وسأنتقل بدَاية من العدد القادم إلى نوع آخَرَ جديرٍ بالتنويه والتعريف، وهو الأطروحات العلميّة التي أنجزها الطلابُ العمانيون وغيرُهم في الجامعات البريطانية، والأمريكية، والأسترالية، وغيرها من الجامعات العالمية التي تعتمد اللغة الإنجليزية في مناهجها. رسائل الماجستير والدكتوراه أطروحات علمية جدُّ مُهمّة؛ تتناول عُمانَ في مجالات عدة تشمل الأدب، والتاريخ، والعلوم، والزراعة، والهندسة، والطب، والنفط، وعلوم الكومبيوتر، والآثار، والتربية والتعليم. و لو اقتصرنا هنا فقط على الأطروحات الإنجليزية، لهالنا عددُها المتاحُ في الجامعات البريطانية والأمريكية، ناهيك عن الأطروحات المكتوبة باللغات الأخرى. ويشير، مثلا، موقع Index to Theses المتخصص في رسائل الدكتوراه التي أُنجزَتْ في بريطانيا من سنة ١٧١٦ إلى الآن، إلى وجود أكثر من ٣٠٠ أطروحة تتعلق بعُمان في مختلف التخصصات. كما أن موقع ProQuest يشير إلى ما لا يقل عن ٤٠٠ أطروحة ماجستير ودكتوراه تتعلق بعُمان، أُنْجز معظمُها في الجامعات الأمريكية والكنْدية. ومن الأطروحاتِ المُبكّرة الهامّة، التي تستحق الترجمة رسالة دكتوراه أنجزها قاسم علي شعبان في جامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٧٧، بعنوان «فونولوجيا عَرَبيّة عُمان». درس فيها شعبان الأصواتَ اللغوية في اللهجة العمانَية، معتمدا بالدرجة الأولى على لهجة أهل مسقط في ذلك الوقت. كما يُمكنني أن أنوّه أيضا برسالة دكتوراه أنجزتها أمل نديم غزال في جامعة ادمونتون، ألبرتا، بكندا، سنة ٢٠٠٥، بعنوان «الإسلام والعُروبة في زنجبار: النُّخْبةُ العُمانية، العالَمُ العربي، وصُنْعُ الهويّة». تجادل أمل نديم في هذه الدراسة بأن العلاقات الوثيقة بين النُّخَب العمانية في زنجبار في الفترة من ١٨٨٠ إلى ١٩٣٠، والحركات الفكرية والسياسية في العالَم العربي كوّنتْ مقاومَةً أيديولَوجيّة للاستعمار. وتركز أمل نديم على دور الشاعر والمثقف أبي مسلم البهلاني في تعاطيه مع التيارات الفكرية في العالَم الإسلامي حفاظا على الهويّة العربية في زنجبار. ومن الدراسات الهامة التي أنجزها الباحثون العمانيون، دراسة دكتوراه حول الأفلاج العُمانية، أعدها الدكتور عبد الله الغافري في جامعة هوكيدو باليابان، سنة ٢٠٠٤، بعنوان «إدارة توزيع الماء في نظام رَيّ الأفلاج بعُمان». تناول الغافري في أطروحته التعريف العلمي للأفلاج، واستخدامات ماء الفلج، وإدارة الفلج، وكيفية توزيع ماء الفلج، وجدولة الري، والعدل في توزيع ماء الفلج، والمشكلات التي تهدد الأفلاج.

عسى أن يكون التعريف بهذه الأطروحات دافعًا للمؤسسات العلمية عندنا لتختارَ طائفةً منها بالطباعة والنشر والترجمة إلى اللغة العربية.

hilalalhajri@hotmail.com

"متفائل" لأوري أفنيري

فوزي البدوي *

هذا هو الجزء الثاني من السّيرة الذّاتية لأوري أفنيري (بالعبرية: אורי אבנרי) الكاتب اليساري الإسرائيلي الشهير والمناصر للقضية الفلسطينية وصديق عرفات الشخصي. وهو وإن كان صهيونياً في بداية حياته إلاّ أنّه يعتبر نفسه اليوم من أنصار ما يُعرف بالصهيونية الجديدة أو ما بعد الصهيونية وقد انخرط منذ ما يُقارب الثمانين سنة في كل الأحداث المصيرية التي عرفها الكيان الإسرائيلي والمنطقة من موقع الملاحظ أحيانا والشريك أحياناً أخرى وباعتباره صانعا لها أحيانا أخرى.

وأوري أفنيري هو الاسم اليهودي لهلموت اوسترمان المولود سنة ١٩٢٣ بمدينة بوخوم الألمانية وقد تربى بعد هجرته من ألمانيا إلى فلسطين في بداية الثلاثينات في أحضان منظمة الإرغون إحدى الأذرع الثلاثة العسكرية للحركة الصهيونية برئاسة دافيد رازئيل، وكان ذلك في سن الرابعة عشرة. ويذكر في سيرته الذاتية أنه سرعان ما غادرها سنة ١٩٤١ أي قُبيل نهاية الحرب العالمية الثانية؛ وكما يقول في مذكراته لسياستها المناهضة للعرب وآيديولوجيتها المعادية للقضايا الاجتماعية.

ويذكر في سيرته هذه أنه عاود الانخراط في الهاجاناه نواة الجيش الإسرائيلي في حرب ١٩٤٨ في لواء جفعاتي، وبالتدقيق في وحدة الكوماندوس المعروفة بثعالب شمشون (שועלי שמשון) وهو الاسم المستوحى من سفر القضاة من التوراة، وعمل تحت قيادة الجنرال تسفي تسور، وشارك في بعض عملياتها المعروفة.

وكانت هذه الحرب كما جاء في مذكراته هي آخر حرب خاضها ضد العرب الفلسطينيين فقد توجّه بعدها مباشرة إلى العمل الصحفي داخل جريدة هارتس وفيها اكتشف حدود الحرية الصحفية ومتاعب المهنة، فقد بدأت بدايات نزوعه إلى مناهضة السياسة الإسرائيلية الرسمية وبن غوريون تحديدا، فاعترض في مقالات عدة على مبدأ مصادرة الأراضي الفلسطينية التي بدأت متسارعة بعد ١٩٤٨ في سباق مع الزمن لاستثمار النجاحات العسكرية والسياسية. ولهذا غادرها بسبب ما اعتبره حدّا من حريته في الكتابة ليبدأ في الكتابة في أسبوعية جريدة هاعولام هازيه التي تمكن من شرائها من مالكها الأصلي. وفي صفحاتها ستظهر شخصية أوري أفنيري الأساسية كمناضل يساري مناهض للسياسات الرسمية الإسرائيلية إلى حدود سنة ١٩٩٣ تاريخ توقفها عن الصدور.

وقد وصف في سيرته الذاتية هذه بجزءيها جزءا من الأزمات التي تعرض لها أثناء إدارته لهذه الأسبوعية خصوصًا بعد فضحه للممارسات التي قامت بها الوحدة ١٠١ تحت قيادة «البيلدوزر» أريال شارون سنة ١٩٥٣ في ما عُرف بمجزرة قبية الأردنية، وهو ما كلفه اعتداء أعضاء هذه الوحدة عليه وعلى رئيس تحرير جريدة هاعولام هازيه صديقه ورفيقه في الكنيست الإسرائيلي شالوم كوهين؛ مما استوجب بقاءه في المستشفى لفترة طويلة.

كما سرد في سيرته هذه ما تعرضت له أيضاً تجربته الصحفية سنة ١٩٥٥ عندما تمَّ تفجير مقر هاعولام هازيه بقنبلة مزروعة بسبب تعرضه بالنقد لرئيس بلدية حيفا « أبا حوشي» אבא חוש لممارساته المناهضة للعرب الفلسطينيين.

ويمكن القول إنَّ هذه السيرة كشفت كيف أنَّ تجربته مع مجلة هاعولام هازيه قد عرفت به مناضلاً شرساً في كشف صورة إسرائيل السيئة والقبيحة دون «خوف ولا مواقف مسبقة» كما يقول هو عن نفسه ليس فقط فيما يتعلق بالقضايا الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي بل وأيضا فيما يتعلق بالمجتمع الإسرائيلي نفسه من خلال فضحه في عدد من المقالات التي كتبها في الخمسينيات عن منزلة اليهود السفارديم أو الشرقيين، وما يتعرضون له من التمييز، كما كشف عن فضيحة لافون الشهيرة التي هزت الأوساط الإسرائيلية الرسمية .

وساهم طيلة بقاء هاعولام هازيه في خلق نوع جديد من الكتابة الصحفية لم يكن معهوداً في الأوساط الإسرائيلية المحافظة آنذاك متميزا بالدقة والحيوية والصوت العالي وغير المتواطئ.

وسرعان ما استهواه العمل السياسي بعد العمل الصحفي فقام على ما يذكره في سيرته الذاتية بالمساهمة سنة ١٩٦٧ وقبيل حرب الأيام الستة بسنتين في تأسيس حزب هاعولام هازيه الجديد ليخوض به انتخابات الكنيست، وهو الاسم الشائع للحزب اليساري الراديكالي المعروف اختصاراً باسم « ميري » מר"מחנה רדיקלי ישראל' ومن خلاله تمكن من دخول الكنيست سنة ١٩٦٥ إلى حدود ١٩٧٣ تاريخ اندلاع حرب أكتوبر ثم ليعود إلى الكنيست من جديد لثلاث سنوات في ما بين ١٩٧٩- ١٩٨١ وقد خصص أكبر حيز من الجزء الثاني من مذكراته لهذا القسم من حياته، حيث تبسط في وصف مشاركاته وقضيته التي ناضل من أجلها، وهي قضية السلام الإسرائيلية الفلسطينية التي كان في كثير من مواقفه رائداً وسباقًا في عرضها والدفاع عنها. من ذلك أنّه، ومنذ سنة ١٩٤٩ أي بُعيد قيام إسرائيل، أدرك ضرورة إنهاء الصراع وإيجاد حل مبكر، فكان من أوائل من دعوا إلى حل الدولتين وصعوبة السير في مسار تكوين دولة ثنائية القومية.

فقد فهم منذ ذلك التاريخ أنّ الوقت يضغط من أجل حل للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، كما أنه أدرك منذ حرب ١٩٦٧ وفي فورة الانتصارات الإسرائيلية وتنامي ظاهرة الصحوة الدينية اليهودية أن ذلك هو الوقت المناسب لتحقيق حل الدولتين قبل فوات الأوان. وهذا الفهم المبكر لطبيعة الصراع ومستقبله هو الذي دفع به مبكرا أيضا إلى الاتصال بشكل سري بمنظمة التحرير الفلسطينية في البداية ثم بشكل علني، وهو الأمر الذي كلّف الكثيرين من الفلسطينيين حياتهم إذ تمت تصفية اثنين من كبار القيادات الفلسطينية من قبل تنظيم صبري البنا أبو نضال الرافض لأي نوع من الاتصال آنذاك، ومن بينهما الدكتور عصام السرطاوي مُمثل منظمة التحرير في لشبونة.

ويكشف أوري أفنيري أنَّ هذه المعارضة لم تكن من جانب الأوساط الفلسطينية فقط بل كانت أشد وطأة داخل المجتمع الإسرائيلي، وعرفت ذروتها في النهاية الأليمة التي عرفها إسحاق رابين على يد إيغال عمير، عميل جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي. والواقع تحت تأثير اليمين الديني وفتاوى «دين روديف» المنسوبة فقهيا إلى الربي موسى بن ميمون القرطبي، وقد كلفته هذه المواقف غالياً من صنوف العداء والتهميش ومناهضة جزء كبير من الرأي العام الإسرائيلي لهذه المواقف والاتصالات.

وكانت قمة هذه المواقف وأشدها أثرًا في الرأيين العامين الفلسطيني والإسرائيلي التقاؤه بالزعيم ياسر عرفات في صيف ١٩٨٢ أثناء حرب لبنان حينما اجتاز الحدود، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يلتقي فيها القيادة الفلسطينية إسرائيلي بشكل علني من أجل النقاش حول سُبل حل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، ثم التقاه بعد ذلك مرّات كثيرة بل ذهب به الأمر إلى حدّ لجوئه إلى المُقاطعة حيث كان الرئيس عرفات محاصرًا مدافعاً عنه من خلال درع بشري حتى لا تنال منه القوات الإسرائيلية المُحاصرة

والمتوثبة والمنتظرة لأوامر شارون، وهو عمل لم ينسه له اليمين الإسرائيلي القومي والديني منه على وجه الخصوص مطلقاً.

وكان موقف أوري أفنيري واضحاً من عرفات فقد اعتبره دوماً رجل سلام ومخاطبا جديا لإسرائيل يمكن التعامل معه والوثوق به، وقال في تأبينه في ذكرى وفاته كلاماً بليغاً في جريدة هآرتس الإسرائيلية معتبرا إياه أحد كبار قادة العالم وزعمائه في النصف الثاني من القرن العشرين.

وفي عام ١٩٩٣ أي بعد حوالي أكثر من عشر سنوات على لقائه عرفات أسس كتلة السلام أو غوش شالوم גוש שלום، التي قامت أدبياتها على ضرورة الدّفاع عن فكرة إقامة دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الفلسطينية متبنية بذلك حلّ الدولتين، بعدما تبيّن أنّه لم يعد هناك إمكانية للدفاع عن فكرة الدولة الثنائية القومية، وهو ما يجعلها في هذه النقطة بالذات في توافق تام مع حركة السلام الآن أو – شالوم عاخشاف – التي أسّسها حوالي ثلاثمائة من ضباط الاحتياط الإسرائيليين مطالبين بعودة إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ وقبول حلّ تقسيم القدس وإنكار أن تكون عاصمة موحدة لإسرائيل .

وتكشف سيرة أوري أفنيري في جزئها الأخير أنّ خيار تكوين الحركة كان قرارا واعيا ومسؤولا؛ فقد خرج من تجربة الحزب الذي أسسه في الستّينيات بقناعة أن الحركات أهم من الأحزاب، معتبرًا منذ سنة ٢٠٠٦ أن تأثير الحركة هو بمثابة «أثر اللولب الصغير» الذي بدورانه يدفع قطعًا صغيرة أخرى إلى الدوران إلى أن يتحرك الوسط أو المركز نفسه «معتبرًا ذلك هو مصير كل الحركات الإسرائيلية المشابهة وقدر القوى الحية في إسرائيل في المستقبل.

ولم يخف قط مساندته تبعاً لهذه القناعات لمؤتمر مدريد للسلام ولاتفاقية أوسلو التي يرفضها اليمين الإسرائيلي القومي الراديكالي والديني بالأساس واعتبرها اتفاقية جيدة للسلام ولإسرائيل معتبرًا أن البنود التفصيلية غير مهمة. ومهما كانت الثغرات والهنات فإنّها السبيل الوحيدة للخروج من الوضع المتعفن، وهي وإن كانت كما يقول بمثابة الجبنة السوسرية المليئة بالثقوب إلاّ أنها أفضل الحلول الممكنة متفقًا في ذلك مع ما رُوي عن عرفات وبعض مستشاريه من أنهم قبلوا بهذه الاتفاق باعتباره الاتفاق الأفضل في الظرف الأسوأ.

وقد استغل اليمين الديني الإسرائيلي هذاالموقف ليشنع على أفنيري كما يقول في سيرته معتبراً إياه خائنًا بسبب أن غيرته لم تكن على إسرائيل بقدر ما كانت على الفلسطينيين، وأنه عوضاً عن أن يسأل نفسه هل هذا الاتفاق جيّد بالنسبة إلى إسرائيل أم لا كان سؤاله معكوسًا، وهو هل هذا الاتفاق جيد بالنسبة إلى الفلسطينيين أم لا .

إن هذا الكتاب فريد ليس فقط بأسلوبه الحكائي والسردي المشوق ولغته العبرية الرشيقة، فقد كشف

خلف شخصية السياسي والمناضل اليساري عن رجل يتقن فن السرد والحكاية؛ فطوال الصفحات الألف للجزءين لا يشعر القارئ بالملل وهو يُتابع سرديته التي تحاول الربط بين الأسلوب المُمتع والقص التاريخ ومناقشة قضايا آيديولوجية وسياسية وقانونية، بل وفلسفية معقدة ولهذا يظل شهادة لا غنى عنها لمن يريد أن يفهم جزءا مهما من تاريخ إسرائيل الحديث ومختلف الأزمات التي مرت بها وجزءا مهما من تاريخ العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية والمفاوضات السرية والعلنية التي بدأت قبل أوسلو بكثير من خلال مصدر رئيسي ساهم في جزء كبير من صياغتها.

والكتاب مهم أيضًا للمشتغلين بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي من جهة أنه يكشف من خلال السيرة الشخصية لأحد رموز اليسار الإسرائيلي الراديكالي المنتقل من ألمانيا طفلاً إلى انخراطه في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، بل وفي أشّد منظماتها تلطّخا بالدّم الفلسطيني قبل ١٩٤٨ ثم توجُهه للعمل الصحفي فالسياسي الحزبي، ثم من خلال الحركات غير الحزبية والمجتمع المدني عن كيفية تفكير جزء من النخبة الإسرائيلية اليسارية التي لم تنكر يوماً ولاءها للحركة الصهيونية ولكنها ليست مستعدة إلى الدفع بإسرائيل إلى أقصى الطروحات الانتحارية لليمين الراديكالي القومي والديني، ومستعدة لرؤية الصراع في جوانبه القانونية والسياسية دون الطروحات الغيبية والدينية والشوفينية، وقد بلغ هذا ذروته في الطريقة التي كان يكتبها أفنيري عن عرفات المليئة بالاحترام في مقابل الاستنقاص الذي عمل به كل الزعماء والسياسيين الإسرائيليين بدءا من بن غوريون إلى بنيامين نتنياهو، وهو أمر تتقاسمه وإياه كل عناصر اليسار الراديكالي الإسرائيلي بدءًا من موشيه سنيه إلى مائير فلنر وشولاميت ألوني ومائير بيليد ويوسي ساريد ويشعياهو ليبوفيتش إلخ ....

ولم ينس أوري أفنيري أن يترك في الكتاب حيزًا لمن قاسمته حياته في حلوها ومرها وما عاشه وإياها من صراعات وخلافات ونقاشات حول الكثير من اختياراته السياسية والمهنية بدءًا من التفريط في مجلة هاعولام هازيه لأحد المستثمرين القريبين من أريال شارون وغير ذلك. ويبدو أن في ما كتبه عنها واللهجة التي كتب بها والوصف العميق للعلاقة العاطفية التي ربطت بينهما إلى حين وفاتها ما يدل على أن الكتاب قد كتب من أجل الإيفاء ببعض دين لها عليه لم يُوفق في أدائه وهي على قيد الحياة.

لقد كلّفت هذه المواقف السياسية أوري أفنيري ثمناً باهظا من معاداة اليمين الديني المتشدد والاستيطاني بلغ حدًا تجرأ فيه زعيم الجبهة القومية اليهودية باورخ مارزيل على الدعوة إلى قتله حينما اعتبر أفنيري أن اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي المنادي بالترانسفير في حكومة أريال شارون من قبل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين انتقاماً لاغتيال أبو علي مصطفى، أمين عام الجبهة في أغسطس ٢٠٠١ أمرًا يمكن تفهمه .

ولحسن الحظ لم تكن حياة أفنيري تعباً كلها فإلى جانب هذه المواقف المناهضة عرف أفنيري تكريماً من مؤسسات عالمية فتحصل على جائزة رايت ليفيلهوود سنة ٢٠٠١ وهي المعروفة بجائزة نوبل البديلة «بسبب اعتقاده الراسخ في خضم العنف القائم بأن السلام لا يمكن بلوغه إلا بفضل العدالة والمصالحة » كما جاء في نص الجائزة .

وبالرغم من أنّ الأوساط اليمينية اليهودية والصهيونية اعتبرت هذه السيرة بمثابة سيرة رجل مسكون بجنون العظمة أخفى الكثير من معايبه التي صرفت الكثير من أصدقائه ورفاقائه عنه وانشقاقهم عنه. أما هو فيرى أنّه بالرغم من بلوغه الثالثة والتسعين إلاّ أنّه ظل كما يقول عن نفسه متفائلا بالمستقبل: مستقبل أطروحاته وخياراته من أجل حل عادل للصراع الإسرائيلي الفلسطيني أولاً والصراع العربي الإسرائيلي لاحقًا. ولذلك ردّد دوما أنه انسلخ عن الصهيونية التقليدية من أجل صهيونية جديدة هي صهيونية ما بعد الصهيونية التي نجد بعض تطبيقاتها النظرية في بعض ما يكتبه المؤرخون الجدد في إسرائيل عن تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي.

عنوان الكتاب: متفائل، الجزء الثاني
المؤلف: أوري أفنيري
الناشر: منشورات يديعوت أحرونوت ٢٠١٦ .
عدد الصفحات: ٥٥٧ صفحة
اللغة: العبرية

* أستاذ الدراسات اليهودية،
رئيس قسم الأديان المقارنة في
جامعة تونس - كلية الآداب بمنوبة

„الربيع العربي.. صورة ثقافية للتغيرات في العالم العربي بعد العام 2010“

يوسف شحادة *

يأتي هذا الكتاب ليسد ثغرة مُهمَّة في سلة الأعمال التي عالجتْ قضايا ما سُمِّي بـ «الربيع العربي» وتعقيداته. وقد اهتمَّ الباحثون الأوروبيون، أشد اهتمام، بثورات العرب واحتجاجاتهم، فقدَّموا كُتبا ودراسات، تناولتْ بالتحليل والتمحيص هذه الاضطرابات؛ بغية رصد حركاتها ومساراتها العاصفة، مُحاولةً شرح أسبابها، وسَبْر ما ستفضي إليه مآلاتها. وظهرتْ، خلال فترة وجيزة، مؤلفات عديدة؛ أهمها: كتاب «الربيع العربي: ثورة في العالم الإسلامي» للألماني يورغ آرمبرستر، وقد تُرْجِم إلى البولندية في العام ٢٠١٢، وفيه تساؤل مهم: أيمكن للديمقراطية أن تسود المجتمعات الإسلامية التي دستورها القرآن؟ وأثمر عام ٢٠١٢ عملين بالبولندية؛ أولهما: «أخي أسقط الديكتاتور» ليبجي هاشتشينسكي؛ حاول فيه الكاتب تقريب أمزجة العرب، وأحوال ربيعهم، إلى البولنديين. وثانيهما: «زنقة زنقة: أي كيف أكلت الجرذان ملك أفريقيا» لأنجي ميللر، وفيه يسلط المؤلف -كمراسل صحفي- الضوء على يوميات الحرب الدموية في ليبيا. وصدر كتاب بولندي آخر وهو «الربيع العربي في شمال إفريقيا»، بقلم إيفا شتشيبانكيفيتش-رودسكا، وهو بحث في أحوال تونس وليبيا ومصر، من عدم استقرار وفوضى، بعد ثورات ربيعها.

وفي العام ٢٠١٦، قدمت البولنديتان إيزابيلا كونتشاك ومارتا فوجنياك-بوبينسكا، كتاب «الاستمرار والتغير في عالم الإسلام». تناولتا فيه التغيرات في الشرق الأوسط بعد انتفاضات العرب، وتأثيرات الثقافة الأوروبية في التفكير العربي.

يمعن مؤلفو «الربيع العربي: صورة ثقافية للتغيرات في العالم العربي بعد العام ٢٠١٠» النظر في وجوه الربيع العربي، جاهدين في رسم صورة جديدة لتجليات الأزمة العربية، ساعين إلى سبر قاع المجتمعات العربية من خلال المنظور الثقافي. يضمُّ الكتاب بين دفتيه دراسات متنوعة، تتقاسمها ثلاثة أبواب، وُسم أولها بـ«حدود الربيع العربي»، وثانيها «الربيع العربي والثقافة الشعبية»، وآخرها «الصورة اللغوية للربيع العربي». تكتب البروفيسورة كاتاجينا غوراك-سوسنوفسكا في المقدمة أن الربيع العربي، في حقيقته، عدة أربعة، مشيرة إلى أنَّه ربيع الشعوب الذي تتشكل حدوده بحركات اجتماعية متنوعة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. لكنَّ الباحثة لا تتوانى في إعلان موت هذا الربيع في «تذييل حزين»، تختم به بحثها، مؤكدة أنَّ تاريخ وفاته كان العام ٢٠١٤، بمجيء الخلافة المزعومة التي سمت نفسها -بخبث وخداع- «الدولة الإسلامية». وبشكل موضوعي، مبني على أسس علمية، تدرس أوضاع الدول العربية قبل انفجار انتفاضاتها، وتدرك ما كان يعتمل في قاع مجتمعاتها وتعقيداتها، وأمور حكمها، وطبائع حكامها. وترى أنَّ الأنظمة الجمهورية لم تكن مهيأة للتعامل مع شعوبها باحترام واجب، ولقد تضخمت أجهزتها الأمنية، وتركزت الرئاسة في يد فرد واحد، وترسخ الحكم الشمولي، واضعا قيوده على حرية الناس، وحقوقهم المكفولة. تميز الباحثة بين أشكال الثورات حسب البيئة التي أنشأتها، فترى في تونس ومصر حالتين متشابهتين بالأسباب؛ فالدور الأول فيهما للاقتصاد، والفساد السياسي والاجتماعي. أما لبيا وسوريا، فكان التسلط، والاستبداد، وفساد الحكم، وراء خروج الشعب إلى ميادين مدنهما. أما الاضطرابات في البحرين واليمن، فمسببها الانقسام الطائفي والقبلي، الذي تحاول غوراك-سوسنوفسكا إرجاعه إلى قرون خلت، وتسميه بـ«إرث الفرقات». وإن بدا تحليلها صائبا فيما يخص الانقسامات القبلية في اليمن، فلم يكن كذلك فيما يخص البحرين؛ فكلامها لم يخل من بعض التبسيط، والتسطيح، فيما تطلق عليه «الانقسام السني الشيعي». لا يمكن اختزال النسيج الاجتماعي البحريني بهيمنة «الأقلية السنية على الأكثرية الشيعية» كما تدعي المؤلفة. تضع غوراك-سوسنوفسكا الأردن، ولبنان، والمغرب، تحت بند واحد يجمعها بمصطلح «التكيف»، الذي يبقى غائما، ولا يناسب بشكل واف أوضاع البلدان الثلاثة المختلفة باختلاف أحوالها، وتشكيلاتها الاجتماعية. ولا يكفي هذا المصطلح لفهم طبيعة الأزمة وحلها، فمجرد القول: «إن قادة تلك الحكومات أظهروا الاستعداد للقيام بإجراءات تكيفية لأنظمتها لتوافق إرادة مواطنيها» لا يقدم تحليلا عميقا لتعقيدات القضية. تكاد المؤلفة تحصر حديثها على أحوال الجزائر، والعراق، بإطار «صدمة الماضي»، متناولة الاضطرابات فيهما من منطلق ماضيهما القريب. بيد أنها تبدو أكثر تفهما وإدراكا لأوضاع السعودية، وقطر، والكويت، وعُمان، والإمارات، فتجمعها بعنوان فرعي أسّه كلمة فرنسية شائعة (désintéressement) «عدم مبالاة»، موحية من خلالها أن ربيع العرب لا يحظى باهتمام شعوب هذه البلدان الخليجية. فالمستوى المعيشي الجيد في هذه الدول لا يعد بيئة مواتية للثورات من الناحية الاقتصادية؛ حيث إن أصحاب القرار، إن شعروا بتململ الشعب، سارعوا إلى تحسين الدخول المالية للفئات المحتاجة. أما من الناحية السياسية، فأنظمة الحكم الوراثية في هذه الأقطار -بعكس الجمهوريات- لا تدعي الديمقراطية، وغير مضطرة لتنظيم انتخابات صورية. وتأتي المؤلفة بعُمان مثالا في معالجة الاضطرابات؛ حيث لُبيت مطالب المحتجين الاقتصادية، بحكمة، لكن دون التهاون في الضوابط السياسية. لكن السؤال الملح، الذي يبقى قائما، هو: هل يمكن عد ما جرى في عمان والمغرب والجزائر، على سبيل المثال، جزءا من ربيع العرب المزعوم؟ أم أنَّ ذلك يمكن وضعه في خانة الاحتجاجات العادية التي تحدث أيضا في أعتى الديمقراطيات الغربية؟ وقد يبدو إدراج تلك المظاهرات المحدودة العدد، تحت عنوان تعدد الأربعة العربية -كما فعلت المؤلفة- أمرا جانبته الدقة إلى حد كبير.

تقدم كاتاجينا بختشين مبحثا تتناول فيه ما سُمِّي «ربيع العرب»، وطرائق تغطيته في وسائل الإعلام الغربية والعربية. وتتوقف عند نقاط مهمة، بدءا من إشكاليات التسمية وتعددها، واختلاف مدلولاتها. وتؤكد أن تسمية الثورات العربية كانت مهمة عسيرة على محللي الغرب، وإعلامييه، فلا يمكن توصيف هذه الظاهرة من دون الرجوع إلى تحليل الاحتجاجات التي ضاقت بها ساحات الشرق الأوسط. بيد أن الأمر بالنسبة إلى الأوروبيين -كما تشير بختشين- يأخذ طابعا خاصا لدراسة هذا الأمر وتقديمه في إعلامهم من منظورهم الخاص، ومنطلقات قيمهم الثقافية، مسترجعين الأحداث التاريخية التي شكلت أوروبا المعاصرة. وتصل الباحثة إلى استنتاجات تؤكد أن الثورات العربية قدمت في الإعلام العربي بصورة مختلفة عما هي عليه في الإعلام الغربي، فأتت المسميات الغربية مقلدة لتوصيفات الهبات الشعبية التي عمت أجزاء كبيرة من القارة العجوز، كربيع الشعوب ١٨٤٨، وخريف الشعوب ١٩٨٩. وكان الإعلام العربي في البداية حذرا في استعمال التسميات الاستعارية لهذه الظاهرة؛ فتحدث عن ثورتي مصر وتونس، بشكل عادي. ومن ثم بدأ يستخدم الاستعارة، فنبتت تسميات مثل: ثورة الكرامة، أو ثورة الحرية، إلى أن ظهر مسمى «الربيع العربي» بتأثير كبير من إعلام الغرب. تنوعت التسميات معبرة عن موقف مسبق من الحراك الشعبي؛ فقد أصبح الربيع خريفا حينا، أو شتاء في حين آخر، وأصبحت

الثورات يقظة عربية، أو إسلامية، أو فجرا عربيا. ثم برز مصطلح «التمرد العربي»، وهو الذي استخدمته الصحافة الألمانية بدمج كلمتين ألمانيتين ليصبح مفردة اصطلاحية (Arabellion).

ويتناول ميخاو موخ الربيع العربي وارتباطه الوثيق بالقومية والهوية الجمعية، مناقشا قضايا البعد العروبي الشامل، والوطني المحلي. ويضع سؤالا محقا، مفاده: هل يمكن تفسير الربيع العربي كنتيجة تفاعل مجموعة أفكار، وأيديولوجيات، تقوم على ما يسميه «العروبية الجديدة»، وأي تأثير سيكون لمسارات الربيع في الهوية/ الهويات العربية في المستقبل؟ (ص:٤٣). ويُمعن الباحث النظر في تاريخ نشوء الحركات القومية العربية، معتمدا على كتابات ألبرت حوراني، وبيرنارد لويس، وأديد داويشا، مقدما تسلسلا تاريخيا لتطور مفاهيم العروبة، منذ النهضة في النصف القرن التاسع عشر، وحتى وقتنا الحاضر. والمسألة العسيرة التي يثيرها ميخاو موخ تتلخص بمفهوم القومية العربية الجديدة، وربطها بربيع الشعوب. بيد أن ثورات العرب انطلقت عفوية، ولم تتزعمها أحزاب قومية، أو وطنية، فالقول بقومية عربية جديدة قد لا يصمد أمام الوقائع التي سيرت الحراك الشعبي، ولا تناسب الواقع المعيش. يعطي الكاتب هذه القومية الجديدة صفة مطاطة، فتجدها تتمتع بقدر كبير من عدم المبالاة بالفكر، وتتبدى فيها الهوية فوق الوطنية، وهي تختلف عن القومية الناصرية، أو البعثية، بضعف حدتها الأيديولوجية. لذلك فهي رفيق مريح لقادة الدول العربية -على حد تعبير موخ- وتتمتع بخطاب سياسي «متشعب، وأحيانا يكون عدائيا للتيار الأشد حرارة في العالم العربي، المسمى بالتيار الإسلامي السياسي» (ص:٥٢). ويسرد المؤلف جانبا من مسارات الإسلام السياسي، ويدرجها في خندق مقابل للقومية، والعروبية الجديدة. لكن هذا السرد لا يكاد يبرح سياق المعلومات العامة، التي قد تفيد القارئ الأوروبي في تتبع دور الحركات الإسلامية في الحراك الجماهيري، وركوبها موجته في صيرورته العاصفة.

ويتناول الباب الثاني من الكتاب موضوعات فيها جدة وطرافة، تميزه عن البحوث التي عالجت الربيع العربي من جوانب مختلفة. منها: ما كتبت ماجدلينا نوفاتشيك-فالتشاك عن النزعة الاستهلاكية، والثقافة الشعبية، وامتداداتهما داخل الثورات العربية، من خلال ثلاثة مواضع، يمثلها عالم الإعلانات التجارية، وعالم التسلية والترفيه، وعالم الموضة والأزياء. أما مارتا فوجنياك- بوبينسكا، فتطرح مسألة السخرية من المستبدين، في رسوم الكاريكاتير، التي ظهرت في خضم الربيع العربي، منتبهة إلى بعض الرموز التي صبغت تلك الرسوم بصبغتها. ومن خلال تحليل نافذ لموضوعات الكاريكاتيريين العرب، تتسلل الباحثة إلى أبواب متعددة، متتبعة شؤون الديمقراطية والحرية، وشجون الفساد والبطالة. وتعاين تطور الرسوم مع تغير مسارات الأحداث على الساحات العربية، فتجد صورة حكام السوء، تليها صور التطرف الأصولي، والإرهاب، والديكتاتورية العسكرية الجديدة. ولا تنسى سرد الأوضاع الصعبة لفناني الكاريكاتير العرب، والمخاطر التي تعرضوا لها في ظل الثورات. وتقدم فوجنياك-بوبينسكا بحثا آخر، تعالج فيه مسارات الطريق إلى الحرية، عبر دراسة

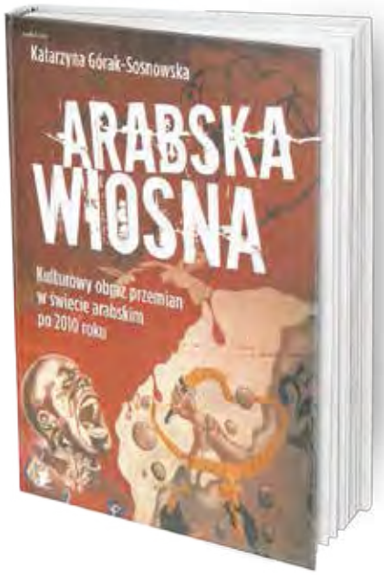

خطوط الرسم على الجدران في المناطق العامة، أو ما يسمى «فن الشارع»، والجرافيتي، وتطور هذه الفنون، في خضم انعطافات الربيع العربي، حتى أصبحت ظاهرة بينة. وتسلط الضوء على جزئيات مهمة، تعبر عما يموج في قاع المجتمعات العربية الثائرة. وتجدها لا تتطرق إلى مهمات هذا الفن تجاه الثورة وضحاياها، وصورة الحاكم، وحسب، بل تتناول موضوعات شديدة الحساسية، مثل: التحرش الجنسي، ووضع المرأة السيئ، وطريقة إشهارها بخطوط هذا الفن الجماهيري. تتحدث الباحثة، أيضا، عن مصائر فناني الشارع؛ ولا يخفى أن منهم من انتظر مصيرا فاجعا، انتهى بموته، أو اعتقاله وتعذيبه، مثلما حدث في ليبيا وسوريا. ربما من المفيد، هنا، توكيد استنتاج المؤلفة أن أعمال الجرافيتي، في الأماكن العامة، عادة ما ينظر إليها في بلاد الغرب، على أنها عمل تخريبي، يقترفه فتية من هامش المجتمع. لكن، مقابل ذلك، يمكن عد رسامي الجرافيتي العرب، أيام ثورات الربيع، مناضلين شجعان من أجل الحرية، ويمكن وضعهم في خانة مقاومي الاستبداد. ويبدو أن الباحثة أصابت في زعمها أن فن الشارع لا يعبر عن رسالة النضال من أجل الحرية، ومقارعة الاستبداد فقط، بل يشير، أيضا، إلى إفراغ حمل كبير من العواطف، بتلوناتها من غضب، وحزن، وكرامة. وفي مجال الموسيقى والأناشيد الثورية، يقدم ميخاو موخ بحثا حافلا بالشواهد الشعرية الثورية، من أقطار عربية مختلفة، ممحصا في مضامينها التي لامست التغيرات الاجتماعية الثقافية الطارئة على المجتمعات العربية في انتفاضاتها. ويرى في هذه الأناشيد والأغاني الثورية، التي ألف جلها باللهجات المحلية، وسيلة تعبير حميمة، نابعة من قلب الشعب ووجدانه، وصوتا للأقليات القومية، والمجموعات المحرومة من حقوقها. أما مفهوم الوحدة العربية -كما يستنتج الباحث- فمتضمن في نصوص الأغاني، حيث إن الثورة، بأناشيدها وأشعارها، تعبر عن تجديد القومية العربية، ناظرة إلى العالم العربي كوطن واحد. يصل الباحث إلى استنتاج آخر، مؤداه أن التسجيلات الغنائية كان لها شأن كبير في كسر حاجز الخوف، ومقاومة الديكتاتوريات العاتية، وخاصة في مصر، وليبيا، وتونس، وأن الموسيقى هي أفضل، بل أهم، مرآة عاكسة للمتغيرات الثقافية في العالم العربي المعاصر.

يُخصص الباب الثالث، من الكتاب، لصورة الربيع العربي من ناحية لغوية، وتتسم مضامين مباحثه بجدية الطرح، وتخرج تحليلات النصوص المعالجة ملأى بالدلالات البلاغية، والإيحاءات اللغوية. ثمة بحثان لماتشي كليميوك، يتناول فيهما خطابات حسني مبارك، وزين العابدين بن علي، ومعمر القذافي. وتجد الباحث مهتما بجزئيات لغوية، تفيد في رسم دلالات تسترعي الانتباه، منها دلالات استخدام الأساليب اللغوية الفصيحة، والعامية، خاصة تلك التي وردت في خطابات الزعيمين المخلوعين التونسي والليبي. أما كاتاجينا بيختشن، فتقدم تحليلا مطولا لصورة الثورة بالبحرين، في وسائل الإعلام الجماهيري البحرينية، مظهرة التباين الواضح بين طرفين، أحدهما مؤيد للحكومة، وآخر يقف في صف المعارضة، فيبدو سرد الأحداث ذاتها، وتفسيرها، مختلفين اختلاف موقفي ذينك الطرفين. تضع ماجدلينا زافروتنا بحثيْن مهمين؛ أولهما يشدنا، بدءا من عنوانه، الذي تضمنه استعارة موفقة من ميخائيل باختين، تتجسد بكلمة «كرنفالية»، التي تتكئ عليها الباحثة لتوصيف الواقع في تطبيقات المصريين الخطابية، بعد بدء الثورات الربيعية. هذه الكرنفالية، ورغم ورودها كتوصيف أدبي عند باختين، أرادتها زافروتنا منطلقا اجتماعيا، وسياسيا، مفيدا، لتحليل ظاهرة انتفاضات العرب. من خلال هذه النظرة الكرنفالية للواقع تبرز اللغة الجماهيرية الحية، بما تحمله من رموز ودلالات، لتترك أثرها واضحا في العلاقات الاجتماعية، وعلاقات الشعب بالحاكم، وارتباط الدين بالسياسة. تقدم المستعربة بحثها الثاني على هيئة معجم لثورة ٢٥ يناير المصرية، وتمعن النظر في مفرداته لتأتي بتحليل للخطاب المصري العام، ولغة التواصل اليومي بين الثائرين. مما يسترعي الانتباه، جهد الباحثة في تثبيت معجم يضم مفردات الثورة المصرية وتعابيرها، وشرح ظروف نشأتها، ومدلولاتها، لتكون وثيقة تاريخية في رصد الخطاب الثوري الجماهيري.

وفي نهاية الكتاب ثبت، يضم خطابات بن علي، والقذافي، ومبارك، التي وجهوها إلى شعوبهم المنتفضة، نقلها إلى البولندية المستعرب ماتشي كليميوك، وسماها «أنطولوجيا خطابات القادة المخلوعين». وقد يكون ذلك الثبت مفيدا للقارئ في فهم الرؤساء العرب، وطريقة مخاطبتهم محكوميهم وقت الأزمات، وربما أيضا يساعد في تحليل شخصياتهم، واستنباط الاختلافات السلوكية بينهم وبين القادة الأوربيين.

- الكتاب: «الربيع العربي.. صورة ثقافية للتغيرات في العالم العربي بعد عام ٢٠١٠».
- المؤلف: عدة مؤلفين.
- الناشر: (Smak Słowa)، سوبوت، بولندا، ٢٠١٦م.
- لغة الكتاب: البولندية.
- عدد الصفحات: ٣١٢ صفحة.

*** أكاديمي فلسطيني مقيم في بولندا - يعمل بجامعة ياغيلونسكي في كراكوف**

«داؤنا يأتينا من بعيد.. تأملات فيلسوف في الإرهاب».. لألان باديو

مُحمَّد الشيخ *

لطالما فكر الفلاسفة -قدماؤهم ومحدثوهم- في موضوع «الحرب» من هرقليطس إلى ميخائيل فالتزر، فضلا عن أنَّهم فكروا في أجناس الحرب من «حرب أهلية» (من أفلاطون إلى أجامبن)، و«حرب مشروعة» (فيشته)، و«حرب عادلة» (من القديس أوغسطينوس إلى فالتزر مرورا بالفارابي وابن رشد...وغيرهم كثير). لكن، ما قد لا نجد فلاسفة فكروا فيه -اللهم إلا قلة معدودة على رؤوس الأصابع- هو موضوع «الإرهاب». ولئن كان بعض الفلاسفة المحدثين قد كتبوا عن الإرهاب، فإنهم اهتموا بالإرهاب السياسي الذي كان قد اجتاح أوروبا في السبعينيات من القرن الماضي (بادر ماينهوف في ألمانيا، والألوية الحمراء في إيطاليا...). وكان أن تفرَّد عندنا في العالم العربي أدونيس العكرة لما أنجز أطروحته حول الإرهاب السياسي.

واليوم، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر على الأكثر، راح الفلاسفة يفكرون في موضوع «الإرهاب»؛ فكان أن دار نقاش عميق قوي بين الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس والفيلسوف الفرنسي جاك دريدا حول موضوع «الإرهاب». «مفهوم ١١ سبتمبر» (٢٠٠٣). وكان أن كتب فيه المفكر البريطاني تيري إيغلتون كتاب «الرعب المقدس» (٢٠٠٥). وأخيرا، طلع علينا الفيلسوف الفرنسي ألان باديو بكتاب عبارة عن تأملات في الإرهاب الذي شهدته فرنسا في أحداث ١٣ نوفبر التي أصابتها بمقتل تحت عنوان: «داؤنا يأتينا من بعيد» (٢٠١٦).

والحقيقة أنَّه لا يتضح عنوان هذا الكتاب -الذي كان في الأصل محاضرة ألقاها الفيلسوف مباشرة بعد الأحداث- إلا عند نهاية الكتاب. وهو مستوحى من عبارة قالها أحد أبطال مأساة فيدر -مسرحية الكاتب المسرحي الفرنسي الشهير راسين- في لحظة بوحه بحبه الذي كان في نظره حبا مجرما: «دائي هذا يأتي من بعيد»، فكذلك يرى الفيلسوف اليوم أن الداء -داء الإرهاب- يأتي من بعيد. وما كانت «بعيد» هذه مكانية، حتى يُساء فهمها فيفهم منها أن داء الإرهاب الذي أصاب فرنسا أتى من بلدان بعيدة، وإنما هي «بعيد» زمانية؛ أي تعود إلى بداية ثمانينات القرن الماضي لما قررت الرأسمالية مصير العالم بعد أن فشل النموذج الشيوعي الذي كان يعارضها ويطرح أملا بديلا بالنسبة إلى الكثير.

وتأسيسًا عليه، يُعلن المؤلف أنَّ محاولته في عمله هذا عبارة عن رغبة في توضيح شامل لما حدث. وهي محاولة سوف يسعى من خلالها إلى معالجة هذا القتل الجماعي بحسبانه أحد الأعراض الحالية لداء خطير أصاب العالم المعاصر برمته، كما سوف يشير إلى السبل الممكنة لعلاج طويل الأمد لهذا الداء المستحكم الذي يعتبر تناسل أحداث من هذا القبيل في العالم عَرَضا خاصا شديد العنفية قوي الإثارة. وسوف يخصص الفقرات الأولى لتشخيص الوضع والفقرة الأخيرة لتوصيف علاج له:

١- بنية العالم المعاصر:

يمكن توصيف بنية هذا العالم المُوَلِّدة لمثل هذا الحدث حسب ثلاثة معالم متواشجة؛ هي:

ما نشهد عليه منذ ثلاثة عقود هو انتصار الرأسمالية المعولمة. وتجليات ذلك بادية للعيان: عودة ضرب من الطاقة البدائية للرأسمالية باسم الليبرالية الجديدة. ذلك أن انتصار الرأسمالية المعولمة إنما هو نوع من الطاقة المتجددة والمقدرة المستعادة على المستوى العمومي الصريح وبلا خجل للسمات العامة لذلك النمط من تنظيم الإنتاج ومن المبادلات ومن الشركات بعامة، وكذلك ادعاؤها أنها السبيل الوحيد المعقول للمآل التاريخي للبشرية. وجديد هذه الرأسمالية التي ظهرت بإنجلترا نحو نهاية القرن ١٨ أنها تعولمت بحيث أمست بنية شمولية مهيمنة على العالم قاطبة. والأمارة على ذلك هذه السوق العالمية التي أضحت المرجع في كل شيء. ما إن تُمس بورصة شنجهاي بعطب حتى تتداعى لها سائر أسواق العالم. لقد بات الرأسمال لا يقبل أي حد، أي منطق آخر سوى منطقه، لا منطق مراقبة الدولة، ولا منطق التنازل للنقابات، ولا منطق الامتناع عن التمركزات الصناعية والبنكية، ولا منطق القوميات الجزئية، ولا منطق مقاومة الاحتكار، ولا منطق منح الحقوق الاجتماعية... كل هذه المحددات سائرة إلى أن تُلغى، وكل شيء سائر إلى الخصخصة، رغم أننا لا ننتبه إلى ما تشكله الخصخصة من آفات. ليس أقلها تصيير العمومي خصوصيا. والفيلسوف يعتبر أنَّ الانتصار الموضوعي للرأسمالية المعولمة بمثابة ممارسة مدمرة عدوانية أمام ضعف المقاومة وتحجيم دورها وتراجعها المستمر. لقد انطلق منطق الرأسمال من عقاله، وتحررت التحررية. وكان أن اتخذ هذا التحرر شكلين (التمدد والتركز): العولمة بما هي الانتشار الموصول للرأسمال في بلدان كاملة، مع تركز هذا الرأسمال في نفس الوقت بين أياد بعينها. وهكذا أمسى الحديث عن «وطن» شأن فرنسا -أمام شركة «طوطال» التي لم تعد تؤدي ضرائب للدولة- أمرا لا معنى له. وحدث أن رافق هذا الانتصار «الموضوعي» للرأسمالية انتصار «ذاتي» تمثل في الاقتلاع التام لفكرة طريق آخر كوني وشمولي ونسقي ممكن: الكل استسلم أو كاد، بما في ذلك «الشيوعية».

ضعف الدول: وهذه نتيجة للأولى؛ فبالموازاة مع ما كانت توقعته الماركسية من أفول للدولة، ها هي الرأسمالية اليوم تشهد على عملية مَرَضية رأسمالية لأفول الدول. ها نحن أولاء رأسمالية تعلو فوق الدول وقد اتخذت شكل شركات عملاقة. وذلك حتى ما عادت الدولة سوى القهرمانة المحلية لهذه البنية العالمية الموسعة.

أمستْ ثمة ممارسات «إمبراطورية» جديدة يجسدها الانتشار العالمي للرأسمالية، بما كان من أمره أن شكَّل وجوها جديدة من أوجه الإمبريالية؛ أي من أوجه غزو الكوكب. ذلك أن الإمبرياليات القديمة كانت تمارَس تحت شعار الدولة القومية التي كانت تتقاسم بقية العالم تقاسم كعكة، لكن صارت اليوم تمارَس باسم الحفاظ على مصالح الغرب وفرض الوصاية على دول، بله إضعاف دول أخرى وتركها نهبا للشركات العالمية. كلا، مَن قال إن فوضى الدول والفظاعات تسير في تناقض مع بنية العالم اليوم؟ ألم تعد داعش قوة تجارية ومشروعا تجاريا كفئا ومتعدد الأشكال؟ أنظرها ها هي تبيع البترول والتحف الفنية والكثير من القطن، وإنها لقوة إنتاج قطن ضخمة. على أية حال، ما كانت داعش هي من تبتاع من نفسها القطن! فلكي نبيع لا بد من وجود اثنين. هكذا أمست الممارسات الإمبراطورية الجديدة تقتضي تدمير الدول. وهكذا لجأ الرأسمال إلى «تقطيع» مناطق وجعلها بلا دول.

٢- الآثار على الساكنة:

الأثر الأول المثير أنَّ ثمة تنمية غير متكافئة لم يشهد لها العالم من نظير؛ مما يؤثر على الديمقراطية: ١٪ من الساكنة العالمية يملك ٤٦٪ من الموارد. ١٠٪ هذه الساكنة تملك ٦٠٪ من الموارد. ٥٠٪ منها لا تملك فتيلا -وهم المدعون «البرابرة» اليوم. والطبقة الوسطى -عصب الديمقراطية- تمثل ٤٠٪ من الساكنة وتتقاسم ١٤٪ من الموارد العالمية. وهي توجد أساسا في الدول المتقدمة، وتشكل ما يسمى «المتحضرين» ويتشدق مفكروها بالقول: «نمط الحياة الغربي ليس يقبل التفاوض».

الأثر الثاني أنَّ ثمة حوالي أكثر من مليارين من البشر لا يعدون شيئا بالقياس إلى الرأسمال؛ أي لا يحظون بأية تنمية بنيوية. فهم في عداد اللا شيء، بل إن عدمهم أفضل من وجودهم. هم عند الرأسمال لا مستهلكون ولا قوة عمل، لأنه عند الرأسمال ثمة وجود فقط لفريقين: إما أن تكون مالكا للرأسمال -الأوليغارشية- أو تكون عاملا أجيرا، حتى تربح فتيلا من المال ثم تستهلك ما يصنعه الرأسمال. هويتك مُبَنينة بالرأسمال، وهي هوية مزدوجة: أجير ومستهلك. ومليارات من البشر لا من هؤلاء ولا من أولئك. ولا يريد الرأسمال تأجيرهم لأنه لا يريد خفض ساعات العمل. ويشاع أنهم يريدون غزو أوربا المتحضرة، لذلك

ينبغي حصرهم في مناطق عزلا بلا أية حماية، بلا دولة بعد أن دمرها المفترسون الغربيون، وتركهم يلقون حتفهم على يد عصابات وقطاع طرق من الصنف الفاشستي ذي اللون الديني على شاكلة داعش وأخواتها. وقد شكل الدين دوما دريئة يحتمي بها أمثال هؤلاء، ولا يشكل الإسلام بدعا من هذا، فقد تُوسلت المسيحية أيضا دريئة لفاشستية فرانكو ولمافيا إيطاليا المتدينة.

٣- الذاتيات الانفعالية:

في ظل هذه الأوضاع يتخذ رد فعل الذاتية البشرية -أي ألوان الوجدان والاعتقاد والقناعة عند بني الإنسان- ثلاثة أشكال: الذاتية الغربية: هي ذاتية أولئك الذين يتقاسمون ١٤٪ التي تركتها الأوليغارشية المهيمنة لهم. إنها ذاتية الطبقة الوسطى المتمركزة أساسا في الدول الأكثر نموا. وهذه الذاتية تعيش ضربا من التناقض: من جهة هي راضية الرضا العظيم عن نفسها تقف خلفه عجرفة تاريخية (بقايا ماض استعماري)، ومن جهة أخرى يستبد بها خوف من أن تفقد امتيازاتها بسبب جشع الأوليغارشية وحروبها الموصولة. وما تعمل عليه الحكومات الديمقراطية هو فن تدبير هذا الخوف بإيهام هذه الطبقة أن الخطر قائم من جهة العمال الأجانب وأطفالهم واللاجئين وساكنة المدن الغميقة والمسلمين المتعصبين.

ذاتية الرغبة في الغرب: هي ذات من يرغب في مشاطرة ما يُعد أنه الرخاء الغربي. يتعلق الأمر بمحاولة تبني سلوك الطبقة الوسطى الغربية القائم على الاستهلاك، ومن هنا هذا الإقبال على الغرب من لدن المهاجرين، أو تقليد نمط الحياة الغربية بوسائل بئيسة من لدن من بقي في بلده ولم يهاجر.

ذاتية العدمية: وهي الناجمة عن رغبة في الانتقام والتدمير لهذه الحياة الغربية مزاوجة بالرغبة في المغادرة وفي التقليد المستلبين. وهذه الرغبة العنيفة في الانتقام من الطبيعي أن تعبر عن نفسها في أساطير رد فعل، في نزعات تقليدية تمتهن الحياة الغربية، ماسكة السلاح في يدها. وإنها لعدمية إنسان ما عادت حياته تساوي شيئا. وخلف هذه الرغبة في تدمير الغرب تثوي رغبة في تقليده. فمخافة السقوط في غواية الغرب، يقاتل العدمي هذا الغرب نفسه.

٤- الفاشستية المعاصرة:

الفاشستية هي ذاتية ردة الفعل. وهي خيبة أمل في الغرب وقد استحالت له عدوة؛ وذلك لأنَّ رغبتها في الغرب لم تُرْضَ. وهي تتخذ شكل نزوع إلى الموت، وقد تبنى لغة هوياتية. والدين هو المكون الذي تستثمره، وإن كان منها براء. وتتوسل عمليا صبغة منطق عصابات وقطاع طرق مجرمين، مع غزو دائم للأراضي التي تحضنها وتمارس فيها أعمالها وتجارتها، مثلما يتصرف بائع المخدرات في منطقة نفوذه. ولكي تبقى صامدة في مغزاها تحتاج إلى فرض فرجة القسوة (جز الرؤوس)، وإلى إعمال السلب والنهب، وإلى إعادة تدوير الأشياء داخل السوق العالمية، مثلما تفعل المافيا. إنما داعش شركة تجارية كبرى ما تفتأ تبيع البترول والتحف الفنية والقطن بل وحتى الأسلحة وأشياء أخرى، ومرتزقتها أُجَراء مع امتيازات إضافية ناتجة عن النهب وعن استعباد الأسرى والأسيرات. فإذن هذا النمط من الوجود يبقى داخل حدود البنية الرأسمالية

المعولمة. وهو يشكل إغراء لأبناء الهجرة، لشباب يعتبرون أنفسهم بلا أفق، وبلا مكانة في المكان. وما تقترح عليهم الفاشستية مزجة من البطولية التضحوية الإجرامية وإرضاء الحياة الاستهلاكية على النمط الغربي: أجور أفضل، نساء، سيارات... وما كانت الأسلمة هنا سوى خاتمة، وليست البداية. فالفاشستية هي التي تتأسلم، وليس الإسلام هو الذي يتفشست.

٥- من هم القتلة؟

إنَّهم كأي شباب فاشستي من أصحاب شعار: «فلتحيى الموت!» جمعوا بين القسوة، والسعي إلى جني الفوائد الصغرى، وإرادة عيش حياة الملاهي والسيارات الجميلة والمال والبنات... قتلة اليوم هم الذاتية الفاشستية المنفصمة، نتاج رغبة في الغرب عانت الحرمان، يتصورون أن ما يحركهم هو هوى معاداة الغرب، ولكنهم ما كانوا سوى أحد الأعراض العدمية للفراغ الأعمى الذي خلقته الرأسمالية المعولمة.

وما كان عملهم ضربا من العمل المنظم مثلما كانت تعمل حركات مقاومة النازية أو الفاشية، وإنما هو يهدف إلى البهرجة. اعتبر أصحابه أن حياتهم لا تعد، ولأنها لا تعد فلا تعد حياة الآخرين أيضا. وها هم يحرقون حياتهم في بطولية سخيفة ومصطنعة وإجرامية. وإنه لقتل جماعي فظيع ينضوي فيه القاتل نفسه؛ أي يَنْقَتل. وإنه لنازع الموت إذ يعبر عن نفسه، فما يعود ثمة شيء، لا ضحايا ولا قتلة.

لكن، هل يمكن أن نسمي فاعليه «برابرة»؟ الذي عند المؤلف أن الغربيين أنفسهم قد مارسوا وما زالوا يمارسون أعمالا بربرية. وذلك شأن القتل الجماعي بطائرات بلا طيار، والتقتيل الجماعي في صراعات العراق وأفغانستان أكبر من أن يعد، وقتلى غزة بلا حسيب.

٦- رد فعل الدولة.. «فرنسا» و«الحرب»:

أعلنتْ الدولة الفرنسية «الحرب على الإرهاب» مدغدغة بذلك عواطف الطبقة الوسطى. ويرى المؤلف أن لفظ «الحرب» استعمل في غير محله، كما يبالغ في إثارة النعرة القومية. إنما «فرنسا» أمست اليوم دالا من غير مدلول. ما هي «فرنسا» اليوم؟ ممثل من الدرجة الثانية في بنية العالم القائم. وما «القيم» التي يتشدق بها بعض مثقفي الطبقة الوسطى؟ لئن كانت لها من قيم فهي قيمة إرثها الثوري. لكن كل شيء انتهى منذ الثمانينيات. فما عادت فرنسا تمثل قيم الثورة. إنما من يمثل اليوم فرنسا هم مثقفون يجمدون على الهوية جمودا ينتهي إلى اضطهاد الغير، وقوانين تمييزية ضد فقراء صنعتهم فرنسا نفسها (قانون منع ارتداء الحجاب في الأماكن العمومية) بعد أن استقدمت آباءهم إليها وما عادت تحتاج إليهم اليوم. أما عن «الحرب» فليس «البرابرة» هم من أعلن الحرب، وإنما الدولة الفرنسية هي التي ذهبت إلى الحرب لمساعدة الشركات الكبرى مدمرة ممزقة خالقة لمناطق بلا دول.

٧- شرائط عودة سياسة تحرر بمعزل عن خطاطة العالم المعاصر:

يتساءل ألان باديو في الختام: كيف يمكننا في ظل مثل هذه الظروف أن نحاول بناء «فكر مختلف؟ بل كيف يمكننا أن نخرج من هذا الوضع؟ والذي عنده أنه يجب، أولا، الخروج من الفضاء الخاص -فرنسا- إلى فضاء أرحب-العالم؛ أي إيجاد طريقة تفكير كونية تكون في مستوى تحدي العولمة الرأسمالية. فلا سبيل إلى بقاء الفرنسيين منكفئين على أنفسهم يعيشون في عزلة عيش عداء لمن هم بين ظهرانيهم. ومن هنا، يدعو إلى ضرب من العصيان المدني -عدم التصويت، عدم الالتفات إلى ما يقوله الحكام-نكاية في دولة أمست مجرد خادمة للرأسمال المعولم.

ذلك أنَّه لا يتعلق الوضع حقيقة بصراع بين الخير والشر والحضارة والهمجية، وإنما بجزء من الغرب انقلب على الغرب نفسه. لقد عجز الغرب عن خلق فضاء ذاتي قابل لسكن مجمل شباب العالم. وليس هذا يعني تسويغ أية جريمة فاشستية، فالفاشستية بكل أشكالها فظاعة. لكن ينبغي فهم هذا التناقض: التناقض بين عدمية الفاشستية القاتلة وبين تطور الرأسمالية المعولمة الإمبراطوري المدمر. ولا ينبغي أن نبقى «منفعلين» في هذا العالم، وإنما المطلوب سياسة جديدة تكون بمعزل عن احتواء هذه الرأسمالية لها. الغياب هو مُنشئ الشبيبة الفاشستية والنزعة النهبية والهلوسات الدينية. هو هذا الداء الذي أتانا من بعيد، وليس من الهجرة، أو من الإسلام، أو من الشرق الأوسط، أو من إفريقيا المنتَهَبة.

ويبقى المفكر الفرنسي ألان باديو، كما صرح بذلك في آخر الكتاب، صاحب نزعة تفاؤلية لا هوادة فيها، لكنه يصرح وكأننا في مسرحية وقد أوشكت آخر فصولها على الانتهاء: الوقت يزحم، الوقت يزحم.

- الكتاب: «داؤنا يأتينا من بعيد (التفكير في مقاتل ١٣ نوفمبر)».
- المؤلف: ألان باديو.
- الناشر: «فايار»، باريس، ٢٠١٦م.
- اللغة: الفرنسية.

*** أكاديمي مغربي**

«رهبان الكنيسة وأباطرة المافيا: تاريخ علاقة المافيا بالكنيسة الكاثوليكية».. لإيسايا سالِز

عز الدين عناية *

شكلت المافيا إحدى أبرز ظواهر شبكات الجريمة المنظمة في إيطاليا على مدى القرن الأخير. وقد بلغت الظاهرة مبلغا أن باتت جزءا لا يتجزأ من انشغالات الخطاب السياسي والقضائي والأمني، في التعبير عن أوضاع التوتر، أو الفساد، أو النفوذ غير المشروع. فقد ظهرت كلمة «مافيا» أوّل ما ظهرت سنة ١٨٦٣، في كوميديا شعبية في صقلية بعنوان «مافيوزيو فيكاريا»، لاقى العرض حينها نجاحا منقطع النظير واستحسانا بين الناس. محاولة العثور عن أصل دلالي للكلمة باءت بالفشل إلى حدّ الراهن، رغم مساعي عدة لإعطاء المفردة تفسيرا مضبوطا ودقيقا. لكن وبشكل عام، تبقى كلمة مافيا متعددة الدلالة متغيرة المضمون، بحسب السياق والوضع ومقاصد الاستعمال. وهي على ما يوحي إيرادها في اللهجات العامية في جنوب إيطاليا شكلٌ من أشكال ممارسة القوة واستغلال النفوذ، وهي سلوكٌ سياسيٌّ مشين أيضا أو تكتّلٌ مصلحيّ فاسد، وبعبارة موجزة هي مظهر من مظاهر العمل غير القانوني واقتراف الجريمة بشكل منظّم. بات للكلمة حضور في الجدل السياسي، وفي التحقيقات القضائية، وفي العروض السينمائية أيضا، للحديث عن الأوساط المتنفذة في إيطاليا بشكل عام، وامتدّ ذلك إلى الولايات المتحدة منذ مقدم المهاجرين الإيطاليين.

كتاب «رهبان الكنيسة وأباطرة المافيا» هو من تأليف أستاذ علم الجريمة إيسايا سالز، المتخصص في تاريخ المافيا. وهو يدرّس في جامعة سَور أورسولا في نابولي، كما شغل عدة مناصب سياسية في حكومة رومانو برودي (١٩٩٦-١٩٩٨). سالز له مجموعة من المؤلفات في مجال الجريمة منها: «عصابات الكامورّا» ١٩٨٨، «الجنوب في زمن اليورو» ١٩٩٨، «طرقات العنف» ٢٠٠٧ الفائز بجائزة الكتاب في نابولي. كُلّف المؤلف بصياغة عدة مواد تتعلّق بالجريمة المنظمة، وعلم الإجرام في موسوعة «تريكاني» الإيطالية. في كتابه الذي نتولى عرضه يركّز سالز بالخصوص في علاقة المافيا بمؤسسة الكنيسة، حيث يعالج موضوعا يبدو عنصراه الأساسيان (المافيا والكنيسة) على طرفي نقيض، بوصف الأولى تمثّل تجمّعا إجراميا لا يراعي حرمة للقانون، والثانية مؤسسة تختزن رصيدا خُلقيا، وتعدّ نفسها وصية على الميراث الروحي. يُشرّح المؤلّف الصلات المصلحية الرابطة بين ظاهرة الجريمة، التي تمثّلها المافيا، ومؤسسة الدين التي تمثّلها الكنيسة الكاثوليكية. وإن يبدو الأمر على شيء من التباعد في المخيال الاجتماعي، بين قطب الجريمة المافيا، وما تختزنه من رمزية للفساد والعنف، وإرث الخُلق الديني المتلخص في الكنيسة، بوصفها أهم الوكالات التربوية للعموم، فإن الأمر ليس على تلك الشاكلة في الوسط الإيطالي، فلطالما تآلف المدنّس مع المقدّس وتكاملت الأدوار، كما يقول الباحث إيسايا سالز (ص: ٦٦).

يعتمد الكاتب في محاور الكتاب الخمسة (ما مبرر صمت الكنيسة المطبق على مدى سنوات؟؛ العقلية المافيوية وتواطؤ بعض رجالات الكنيسة؛ غياب تسليط عقوبة الحرمان على رجالات المافيا؛ أشداء في الخطيئة متسامحون مع المذنب) منهجَ التحليل الثقافي الاجتماعي لأجهزة الكنيسة في دعمها للتشكيلات المافيوية وفي مساندتها، وذلك من خلال تتبّع ظاهرة الجريمة في إيطاليا بوجه عام.

ضمن إجابته عن سؤال: ما المافيا؟ الوارد في المحور الأول، وبعد تعريفها أنها تشكيل إجرامي خاضع إلى بناء هرمي لأشخاص يسعون بوسائل غير قانونية لبلوغ مآرب، يعتبر إيسايا سالز أن حصول ازدواجية في الموقف من ظاهرة المافيا، من جانب المحلّلين والكتّاب الإيطاليين، هو ناتج عمّا ترسّخ من ضبابية تجاه ذلك التنظيم منذ بدايات نشوئه (ص: ٨٧).

ويعود الباحث إيسايا سالز بازدواجية ذلك الحكم والنظر للمافيا إلى الكاتب الإيطالي الماركيزي روديني، سنة ١٨٧٥، الذي ميّز بين مافيا شريرة وخسيسة، لا تراعي خُلقا في عملها، ومافيا نبيلة وشريفة تحتكم في أنشطتها إلى مرجعية معيارية، ليصل بنا إلى تصريح الفقيه القانوني الإيطالي فيتوريو إيمانويلي أولاندو، سنة ١٩٢٥، في قوله: «أعلنُ أني مافيوزي وأنا فخور بذلك!»، على اعتبار أنّ جانبا نبيلا في المافيا لا ينبغي طمسه. وصحيح أن المافيا ثقافة ونمط عيش وليست تنظيما جامدا وثابتا، وهي أيضا شلل صغيرة الحجم قوية الفعل، تميزها علاقات زبائنية في ممارسة الجريمة، تخلو، وبأي شكل، من الروابط الإثنية بعكس ما يُضفى عليها أحيانا. فالتنظيم المفترض ليس سوى بنية علاقات شبه عائلية مميزة للمجتمع التقليدي، وهي نوع من تجمع البزنس العائلي.

ويخفي التآلف الذي سعى إيسايا سالز إلى إبرازه في كتابه، بين المافيا والكنيسة، موقفا غير معلَن من كلتيهما تجاه الدولة، يبلغ أحيانا حدّ الخصومة مع المؤسسة الرسمية. وهو توترٌ في العلاقة ليس وليد الراهن، بل يضرب بجذوره في عمق فترة التوحيد وبناء إيطاليا الحديثة. وهو ما انعكس على تقليص نفوذ الكنيسة وحصَرَها داخل حيز ترابي في حاضرة الفاتيكان في مدينة روما. في هذا السياق جاء تشكيل لجنة برلمانية، سنة ١٩٦٣، لتقصّي تحديات المافيا للدولة الإيطالية.

وضمن المحور الثاني من الكتاب، يبيّن الكاتب أن تحولاً حصل في خطاب الكنيسة الكاثوليكية تجاه المافيا منذ العام ٢٠١٠. أصبح الموقف أكثر وضوحا وبدون إيماءات، أي بخلاف ما كان معهودا. كان مستهلّ ذلك التحول الوثيقةَ الصادرة عن المؤتمر الأسقفي الإيطالي حول الموضوع، التي ورد فيها: «على مدى العقدين الأخيرين، طورت التنظيمات المافيوية، التي رمت بجذورها في كامل التراب الإيطالي، مصالحَ اقتصادية.. نعود مجددا وبقوة إلى إدانة هذا «السرطان» المهين للكرامة البشرية.. فالمافيا هي التجلي الأكثر درامية للشرّ والخطيئة. وضمن هذا السياق يصعب تفسير الأمر كونه مجرد تعبير عن تديّن مشوَّه، ولكنه شكلٌ فظّ لرفض تعاليم الرب: المافيا هي بنية خطيئة».

يتضح في نطاق سياسة الكنيسة أنّه عادة ما يرد استعمال سلاحين متنوعين لتقريع المذنبين ومجازاة المحسنين: الحرمان كعقوبة تُصلَت على العصاة ونقيضه التطويب، الذي يرتقي أحيانا إلى حدّ التقديس، أي رفع الشخص إلى مقام القداسة لفائدة الخيّرين والمحسنين. الأول يلحَق المرء في

حياته والثاني يطاله بعد مماته. وفي ما يتعلّق بسلاح الحرمان الذي غالبا ما أشهرته الكنيسة في وجوه المنشقين والمناوئين، لم يثبت استعمال ذلك السلاح ضد أي من رجالات المافيا المعروفين، وأبطلت ذلك الإجراء على مدى عقود. لكن إضفاء التطويب حصل أن وظفته الكنيسة في ما يتعلق بالمافيا، ولأول مرة خلال العام ٢٠١٣، عندما طوّبت أحد الضحايا، رجل الدين الكاهن بولييزي، واعتبرته شهيدا مكرَّماً. مع أنه سبق أن سقط جملة من رجال الدين ضحايا للمافيا، تغاضت الكنيسة عنهم خشية توتير علاقتها مع أباطرة المافيا المتنفذين على غرار ما حصل للراهب بيبينو ديانا.

خلال العام ٢٠١٤، وفي نطاق تحمّس البابا فرانسيس برغوليو، إبان توليه رئاسة كنيسة روما، سعى إلى تطهير حاضرة الفاتيكان ممن أطلق عليهم تسمية الغربان، أي كل من تورّط في الفساد الأخلاقي والمادي. وامتدت حملته حينها إلى حدّ تلويحه بتسليط الحرمان على رجالات المافيا في عظة ألقاها في كالابريا عاصمة المافيا الإيطالية في الراهن، في قوله: «لا تربط زعماء المافيا صلة بالرب، لأن سوط الحرمان مسلَّطٌ على رقابهم»، فكان فرانسيس برغوليو أول بابا يقطع شعرة معاوية مع جماعات المافيا، ويعلن عن إدانة الكنيسة الفساد صراحة. فلطالما تعامل اللاهوت المسيحي مع عناصر المافيا بشيء من التهوين والتبسيط والحذر، بوصفهم خراف الكنيسة الضالة الذين ينبغي ردّهم إلى القطيع. يتساءل الكاتب عقب عظة البابا تلك، هل تغير شيء في سياسة الكنيسة وفي فينومينولوجيا المافيا؟ فالكنيسة تعرض نفسها بوصفها مؤسسة تمقتُ الفساد وترفض العنف، لكنها تتغاضى دائما عن التنظيمات الإجرامية العنيفة.

والواقع أن ما حصل من ترابط وتشابك للمصالح بين بنية المافيا ومؤسسة الكنيسة يعود إلى فترة سالفة في السياسة الإيطالية، انطلقت مع حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ذلك أن التحول الفعلي الذي حدث مع سنوات الخمسينيات للمافيا، وهو تشكُّل نوع من الوفاق السياسي المصلحي بين أطراف سياسية مقرَّبة من الكنيسة وأرباب المصالح والأعمال، تركّز في باليرمو وامتد إلى مناطق أخرى في الجنوب. انجر عنه نوع من الغطاء السياسي الذي تمتّعت به المافيا من قبل حزب الديمقراطية المسيحية المهيمن على الساحة السياسية، مما وفّر بيئة ملائمة لتفريخ العديد من الأصناف المافيوية: «كوزا نوسترا»، «إندرانغيتا»، «الكامورا»، «ساكرا كورونا أونيتا». حيث بقيت المافيا، على مدى عقود ولازالت، بنية خدمات، مفتوحة عبر عدة قنوات على عالم السلطة الرسمية. والكتاب لا يتّهم الكنيسة بمساندة المافيا أيديولوجيا، بل يتّهمها بمعاضدتها ماديا. فعلى ما يرصد سالز ثمة تناغم بين العقلية الجنوبية والسلوك المافيوي، ذلك أن

الأقاليم الأكثر التصاقا بالتقاليد الكاثوليكية (الواقعة بين صقلية ونابولي) هي التي شهدت ميلاد أصناف المافيا الرئيسية في إيطاليا وتطورها، وقد تم ذلك الربط بين الثقافة والمكان أن مجمل المتهمين بالانتماء إلى الأوساط المافيوية غالبا ما كانوا يعلنون التزامهم بالتعاليم الكاثوليكية. لكن ينبغي ألا نغفل أن مجمل التحليلات التي ربطت بين الجنوب والدين والمافيا، وألحت على ذلك، قد وردت من كتّاب يساريين. نجد من بينهم ثلّة من الكتّاب المعروفين مثل سيموني غاتو، وميكيلي بانتاليوني، وليوناردو شاشا، يحفزهم في ذلك ربط التواطؤ الحاصل لحزب الديمقراطية المسيحية المهيمن في ذلك العهد بالمافيا. حولوا بمقتضاه الكنيسة وذراعها السياسية، حزب الديمقراطية المسيحية، إلى «مؤسسة خطيئة»، كما يقول لاهوت التحرير، ذلك ما يدور حوله تقريبا المحور الثالث من الكتاب. المحور الرابع والأخير «أشداء في الخطيئة متسامحون مع المذنب» يستعرض الكاتب من خلاله آراء متنوعة ذهبتَ في تحليلها لظاهرة الجريمة المافيوية، أن التنظيم قد وجد بيئته الاجتماعية المناسبة للتطور في الجنوب الإيطالي، لكونه تشكيلا إجراميا تقليديا. فالانضمام إلى المافيا يشبه الالتحاق بتنظيم ديني، يقتضي ولاء تاما وقسَماً، يماثل التعميد لدخول الكاثوليكية. ولذلك يرى الكاتب إيسايا سالز مجافاة جملة من القراءات السوسيولوجية الصَواب في تقييم ظاهرة المافيا والنظر إلى هذا التشكيل الإجرامي، كونه يسير نحو الانقراض بسير المجتمع نحو التحديث والعصرنة. وهو بخلاف ما يلاحظه سالز من ازدياد تشعب شبكة المافيا وتمددها، حيث باتتَ تتواجد في قطاعات متنوعة وتعمل في مجالات متباعدة، كما تبدلت أشكال أنشطتها، أو لنقل استفادت من الحداثة أكثر مما تضررت. يدعم ذلك تقسيم المافيا إلى صنفين: تقليدية يتمحور هدفها في البحث عن الوفاق أكثر منه في جني الأرباح، وبالتالي فهي مافيا شرفية أكثر منها مافيا مصلحية؛ وهناك مافيا حديثة، أي مافيا أعمال، مهووسة بتكديس الثروة ومشغولة بالتوغل والتحكم في الأوساط التي يمكنها الإسهام في ذلك.

وعلى ما يرصد سالز يمتد عمر التنظيمات المافيوية في إيطاليا إلى حدود مئتي سنة، فهي متجذرة في صلب بناء إيطاليا الحديثة. ومن هذا الباب فإن اجتثاث الجريمة المنظَّمة في البلد هو أمر في غاية الصعوبة والتعقيد. فليست المافيا مجرد أنفار، بل هي ثقافة ومؤسسة لصنع الجريمة متكاملة الحلقات، ولذلك تعذرت هزيمتها وإن حصل تحجيم وتطويق لها عبر الزمن. فقد حصلت أشكال من الهدنة والمصالحة والتوبة أيضا. ويقدّر نسبة اقتصاد الجريمة، على غرار المتاجرة بالسلاح وصنعه، وترويج المخدرات، والمتاجرة بالبشر (مومسات) بنسبة تفوق العشرة بالمئة من الدخل الوطني الإيطالي (ص: ٢٧٠). صحيح أن هناك خبراء في مقاومة المافيا وفي التصدي للجريمة المنظمة في إيطاليا، يعملون دائما على تفكيك تلك التجمعات وتفتيتها، ولكن سرعة تشكل التجمعات مجددا واستئناف أنشطتها، يكشف عن تواجد ثقافة سائدة وحاضنة اجتماعية مناسبة للجريمة في العقلية العامة. ويمثل السلوك المافيوي، وفق الكاتب، شكل حضور المجتمع الصقلي، على جميع الأصعدة.

يختتم الكاتب كتابه بتناول ما عُرف بتصدير المافيا، فقد نال التنظيم شيئا من الاهتمام من قبل باحثين أمريكيين مع نهاية القرن التاسع عشَر، نظروا فيه إلى المافيا بوصفها منظمة سرية على صلة بمؤامرة خارجية، لم تخل من كيل الاتهام للحكومة الإيطالية حينها الراغبة في التخلص من الأشرار الخطرين. كما رصدت بعض الأبحاث الطابع المافيوي والسلوك غير القانوني المستشري بين فئة المهاجرين الإيطاليين نحو أمريكا، لكن انتقادات توجهت إلى محاولة تجريم جالية بأسرها، كون السلوكات غير القانونية التي رافقت المهاجرين الأوائل إلى الولايات المتحدة هي تجاوزات معتادة للجاليات المهاجرة قبل الاندماج.

الكتاب: رهبان الكنيسة وأباطرة المافيا: تاريخ علاقة المافيا بالكنيسة الكاثوليكية.
المؤلف: إيسايا سالز
الناشر: روبتّينو (كاتنزارو-إيطاليا)
اللغة: الإيطالية
سنة النشر: ٢٠١٦.
عدد الصفحات: ٣٣٦ص.

* أستاذ تونسي بجامعة روما

سبينوزا ودولوز: قراءات متقاطعة لباسكال سيفيراك وأن سوفنيارغ

سعيد بوكرامي *

عندما ندرك أن كتاب « سبينوزا «دولوز قراءات متقاطعة» الذي أشرف عليه الباحثان -باسكال سيفيراك وأن سوفنيارغ-هو أول مؤلف باللغة الفرنسية يخصص للعلاقة بين سبينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧) ودولوز(١٩٢٥- ١٩٩٥) يبدو الأمر غريبا، لأن الشائع والمتعارف عليه أن دولوز كان قريبا جدا من الفلسفة السبينوزية. والأكثر استلهاما لفلسفتها وتعليقا عليها. لكن لا مؤلف حاول تسليط الضوء على هذا اللقاء الحاسم بين فيلسوفين عظيمين. حدث هذا اللقاء، لأن قراءة سبينوزا تغيرت تماما مع فلسفة دولوز وما عادت قراءة سبينوزا تتم بالطريقة نفسها. ويعتبر سينوزا من بين أكبر أساتذة دولوز، وأكثرهم أهمية، وبالتالي سنجد حتما سبينوزا متغلغلا في فلسفة دولوز ويقودها نحو فلسفة جديدة، وأقرب مثال لهذا اللقاء، نجده في فلسفة الرغبة عند المفكر الهولندي، كمصدر أساسي لفلسفته. وبناء على هذا، حاول دولوز البحث في الرغبة عن قوتها الإبداعية، لأنها لا تحيل على اندفاعات غريزية أو تطلعات فردية، ولا تتعقب الملذات عبثا. لأن الرغبة، التي هي في الآن ذاته، ميتافيزيقية وجماعية، تعين هذا المسار، الذي تتجاوز عبره الذات نفسها، وتتموضع وفق تدفقات أخرى للكثافة، ثم تجد نفسها مأخوذة ضمن تجريب ممكنات جديدة للتفكير والتجريب والحياة.

يقترح هذا الكتاب الجماعي سلسلة من الدراسات التي تبحث في تنوع العلاقة بين سبينوزا ودولوز. كما تبحث جميعها عن تأثير سبينوزا في المسار الفكري لدولوز وحول طريقة هذا الاخير في قراءة سبينوزا، ومن خلال دراسة الاختلافات بين هذين الفيلسوفين، ومحاولة أيضا اكتشاف ما لم يتم استغلاله من طرف دولوز لدى سبينوزا.

تدور أغلب التحليلات حول إشكالية أثيرة لدى دولوز وهي محاولة تجاوز مفهوم النموذج من طرف فلسفة المحايثة immanence (يعرفه دولوز بـ«كل غير محدود يجمع المفاهيم الفلسفية كلها في مستوى واحد»)، الأمر الذي يؤدي إلى مفهوم «الجسم بلا أعضاء» (استوحى دولوز هذا المفهوم من شعر الفرنسي أنطوان أرطو). كما تنفتح العديد من المساهمات على بعض الموضوعات والمفاهيم الجانبية مثل الديمقراطية، وتاريخ الفلسفة ومناهجها، وحول «الأنا» والصيرورة الحيوية، والغيرية، والفن. قام بتحرير الكتاب مجموعة من المتخصصين البارزين في فلسفة سبينوزا أو فلسفات العصر الكلاسيكي وهم: (سافيريو أنسلادي ، لوران بوف، شانتال جاكيه، كيم سانغ اونج فان كينغ ، تشارلز رامون وباسكال سيفيراك واريل سوهامي)،بالإضافة إلى متخصصين اثنين في فلسفة « دولوز » هما (فانسون جاك وآن سوفانيارغ).

يعتبر دولوز أحد الكتاب الأوائل الذين أحيوا الدراسات السبينوزية في فرنسا منذ عام ١٩٦٠. ولذلك يحتل مكانة مركزية في السبينوزية الفرنسية وبالتالي مارس نفوذا على جميع المفسرين الذين جاءوا بعد ذلك. يقول اريل سوهامي: « يتمتع دولوز بنوع من الحصانة الملكية والعصمة البابوية، وبفضل هذا لا يمكنني الدنو منه إلا بعمل طويل ومضن «(ص. ٧٢). الكتاب إذن فرصة للمؤلفين لتسوية حساباتهم مع قدسية دولوز، بما في ذلك البحث عن مصادر مناهجه في القراءة والمقاربة لمفاهيم سبينوزا. وفي هذا السياق يشير اريل سوهامي كيف أن دولوز يلحم بعض «اقتباسات» سبينوزا ثم يعلق عليها فيما بعد بهدف البناء الفوري والمناسب لمفهوم جديد. وهذا الإجراء يسمح باستغلال تاريخ الفلسفة على أنها حرب بين مختلف «العائلات» الفلسفية، والاستفادة من الطاقة من مقامها الجدلي. أما تشارلز رامون فيبين أن باستخدام دولوز المتكرر للصيغ الزجرية والمنعية(التي هي موضوع دراسة منهجية، مفيدة جدا للذين يشتغلون عليها)، والتي تمارس «نشاطا وقائيا» (ص ١٠٩) من طرف القارئ ضد التفسيرات التي قد تقوده إلى الجانب الخاطئ من تاريخ الفلسفة. الحال أننا بعيدون عن أي نوع من الخيانة، وحسب شانتال جاكيه فإن حرية السبينوزية لدى دولوز هي نتيجة الانتظام الكبير الذي تختص به كتابات سبينوزا، التي تشتغل كرياح، وعصف يهب على القارئ المتخصص أو غيره – موجها إياه أيان لا يرغب، أو هي شبيهة بـ«مكنسة الساحرة» التي يمتطيها القارئ بذهول وتحمله أيان لا يشاء. (ص ٨٥).

يظهر دولوز قوة ومرونة في امتلاك فلسفة سبينوزا التي مهدت له الطريق لصياغة أدوات منهجية للإجابة على قضايا مركزية في منعطفه الفكري. وأثناء محاولته تجاوز مفاهيم الشكل والتمثل المرتبطين بالتمييز بين القوة والفعل التي يستدعيهما دولوز من خلال فلسفة سبينوزا. إن الحفر في هذه الإشكالية يصنع فرادة قراءة دولوز كما يشير إلى ذلك فانسان جاك ويتجلى ذلك في أن دولوز يبحث عن المؤثرات والمفاهيم الهامشية في الفلسفة عامة وفلسفة سبينوزا خاصة. وهكذا يعيد دولوز قراءة مفهوم الفرد ليس كمظهر ولكن كمركب من العلاقات. يمكن رصد الفردانية في تفاوت قدرة الجسم على التأثير والتأثر، والتغيرات في قوة هذا الفرد. لم يعد الفرد يحصر في شكله بمعنى الفئة التي يصنف ضمنها، ولكنه كنه يميز عن غيره من الأفراد وفقا للطريقة والدرجة التي تلاحظ من تأثره وتأثيره.

أما دراسة أنطونيو نيغري فتبين كيف شكلت فلسفة سبينوزا كايروس حقيقي في التفكير الدولوزي:

للخروج في الوقت المناسب من البنيوية، وانغلاقها أمام الصيرورة، كي تنفتح على فلسفة التعبير عن الذات، وعلى الفكر الجمعي المبني على المشترك لخلق دينامية ديمقراطية «المطلقة على الاطلاق»، حسب تعبير سبينوزا. «هنا: أصاب السهم المرميّ من طرف سبينوزا إلى دولوز. عندما يحدث لقاء من هذا النوع، يصبح هذا الكايروس اسم قدر مشترك، فتتضاعف إمكانية الوجود».(ص ٤٥)

ثم نصل إلى مساهمتي كيم سانغ اونج فان كونغ وسافيريو أنسلادي اللذين يبرزان كيف أن دولوز غير دفة تفكيره نحو «أخلاقيات الاختلاف» (ص ٥٦)، والتحولات، مبتعدا عمّا كشفت عنه اليوم الدراسات السبينوزية حول ما يطلق عليه «أخلاقيات النسبة» (ص. ٥٧). في حين يعتمد سبينوزا في مشروعه الأخلاقي على المحافظة

وتقوية شكله، المصمم كمركب من العلاقات، وهذا يعني الحفاظ على النسبة نفسها، شجع دولوز في أعماله المتأخرة، بما في ذلك كتابه «ألف هضبة»، الذي حاول فيه تغيير العلاقات التكوينية للجسم، بمعنى آخر، تحديد تغييرات الشكل التي تحدث من خلال التجريب الذاتي. بينما بين باسكال سيفيراك الاختلافات الحاصلة بين مفاهيم سبينوزا ودولوز ولكن أيضا وضح التقارب الوثيق بين مفهوم الجسم دون أعضاء الدولوزي و «والصيرورة النشطة» لدى سبينوزا. يفصل دولوز الجسم البيولوجي عن الجسم كمركب عاطفي ويفكر في أخلاق من التدمير والتحول الدائم للجسم العاطفي، التي لا تترك سليما غير الجسم البيولوجي: وهذا هو المثل الأعلى لل CsO (يسمي دولوز هذه الآلات الراغبة بالأجساد اللاأعضاء -Les CSO- وهذه الأجساد هي الرغبة، نرغب فيها وبها(..) إن الجسد بلا أعضاء يشكل حقل المحايثة للرغبة(...) فهناك الرغبة حيثما هناك الجسد بلا أعضاء(..) ولا يتعلق الأمر بمسألة إيديولوجية ولكن بمادة خالصة، بظاهرة لمادة طبيعية، بيولوجية، نفسية اجتماعية أو كونية) الجسم بلا أعضاء. إن القرابة مع الصيرورة النشطة تكمن في محاولة التدمير للمنظمات العاطفية المستقطبة التي تحد من قدرتنا على التأثر بعدد وافر من التصرفات. إن ظهور CsO هو إعادة اكتشاف أجسامنا من خلال التجريب الذاتي، والتغييرات المستمرة في جسمنا العاطفي لكن سبينوزا لا يذهب بعيدا ويتجلى ذلك من خلال مثال للشاعر الإسباني الذي ينسى خرافاته الخاصة، مبرزا أن التدمير أو التحول جذري في الجسم العاطفي وهو شكل من أشكال الموت، وهذا الانحدار لا يمكن أن يكون مرغوبا فيه من الناحية الأخلاقية.

وتدريجيا نصل أخيرا إلى دراستين انسلختا عن اهتمامات الدارسين السابقين إذ اهتمتا بالمفاهيم الأقل مركزية في فلسفة سبينوزا ودولوز، لكنهما انفتحتا كثيرا على البعد السياسي. وإذا نظرنا إلى مساهمة آن سوفنيارغ نستكشف نتائج المحايثة لأجل فلسفة للفن، والتفكير في العلامات لا أن تكون تأويلا وإنما كخبرات: العلامة هي مؤثر. وبما أنها مؤثر ، فالعلامة تغير قدرتنا على التأثير والتأثر بما «يعرض من تقارير الذاتية الحقيقية» (ص ١٧١)، وهذا يعني، أن الكشف عن بعض تقارير التصنع بين الشيء وجسمنا، والذي كان من قبل غير مرئي (ولكن كان حقيقة فعلية). ومن هنا شرح دولوز أن الفن الذي يعرف بأنه شبكة من العلامات، فإنه في الواقع مادة إكلينيكية، تتشكل من «أعراض» عن العلاقات العاطفية ولكنها أيضا نقد، وهذا يعني أنه «تفسير لآليات الانقياد» لأنها «تسمح لنا أن نشعر، ونفكر

ونضحك من المعايير المعقدة التي تجعلنا غير موضوعيين » (ص. ١٧١) .

بينما يتساءل الباحث لوران بوف : لماذا لم يستخدم دولوز سبينوزا للتفكير في «بنية الآخر»، أي الآخر الذي يؤثر فينا ويحددنا. وذلك من خلال الاشتغال على قصة «آدم» التوراتية. يحدد دولوز لدى سبينوزا ثلاث طرق لبنية الأخر التي تحددنا من خلال محاكاة المؤثرات التي تحتاج الى قوة لمقاومة الهيمنة والخضوع وأخيرا، محاولة للتمايز عن الآخر، التي تعتبر شرطا حالة لتميز الفرد ومظهرا لفرادة الذات. وبهذا يتبين أنه على الرغم من براعة قراءة دولوز لسبينوزا إلا أنه لا يستغل بالكامل الثراء المفاهيمي للسبينوزية، هذا الثراء الذي أصبح اليوم في المتناول بفضل حيوية الدراسات السبينوزية المعاصرة.

يعتبر الكتاب الذي تناولناه بالمراجعة بوابة مثالية للدخول إلى فكر دولوز لمن يعرف بالفعل سبينوزا أو الدخول إلى فكر سبينوزا لمن يعرف بالفعل دولوز. ومما لا شك فيه أن السبينوزيين أو الدولوزيين سيحتفون بالمجموعة الكبيرة والمتنوعة من نقاط المواجهة، والتقاطع التي اشتغل عليها الباحثون القادمون من الفلسفة الكلاسيكية أو الفلسفة الحديثة ليعقدوا لقاء مشتركا فلسفيا و تاريخيا بين فلسفتين متقاربتين ومتعاكستين ومنتجتين لأهم المفاهيم الفلسفية. وأخيرا، لا بد من الإشارة إلى أن هناك بعض المساهمات التي سعت إلى تفسير التناقض المتواجد في سبينوزية دولوز، من خلال دراسة الحلقات الصوتية لمحاضرات دولوز عن سبينوزا. وللتذكير، فإنها غير منشورة ولكنها متوفرة على اليوتوب. هذه المقاربات الأخيرة تخلص إلى اكتشاف تماسك عجيب في المشروع الفلسفي لدولوز رغم تنوعه وشذريته. وهذا ما يجعل من الكتاب باقة معرفية عميقة من الأفكار الفلسفية عن تاريخ الفلسفة، التي تسمح بقياس أهمية دولوز في الدراسات السبينوزية وفي الحين نفسه تسمح بكسر قدسيته أو بمعنى آخر محاولة القيام بخطوة أولى ضرورية نحو انتقاد مثمر لفلسفة دولوز وتجاوزها بنجاح.

إن معظم الدراسات عن جيل دولوز، أحالت بشكل مباشر إلى ما وضعه من مفاهيم مختلفة جعلته يتجاوز الفلسفة و«معرفة المبادئ الأولى»، إلى إبداع جهاز مفاهيمي، غير مسبوق، وبالتالي وضع حد نهائي للتعريف الأرسطي، وبهذا رسم صورة مثيرة عن فيلسوف الاختلاف. هذا الاختلاف الذي انعكس على فكره وحياته. يعتبر دولوز الفلسفة إبداعا متواصلا للمفاهيم وحركة إيجابية تهتم بما يرغبه الإنسان، ولا تحاول محاربة ما يرفضه. وقد أحالت الدراسات أيضا على منجز دولوز الذي لم يتناول سبينوزا بالقراءة والتحليل نذكر منها: كتاب«نيتشه والفلسفة» (١٩٦٢)، و«فلسفة كانط النقدية» (١٩٦٣)، و«البرغوسنية» (١٩٦٦)، و«الاختلاف والمعاودة» (١٩٦٨)، و«منطق المعنى» (١٩٦٣)، وألف مع فليكس غتاري كتاب «ما الفلسفة» (١٩٩١) وغيرها.

في الختم، يمكن القول أن كتاب دولوز وسبينوزا جسد بعمق فكر دولوز الذي سعى طوال مشواره الفلسفي لجعل العالم فريدا من مستويات الإدراك والإحساس. وكان دائما بالنسبة إليه تجسيدا لرغبة ملحة تهدف إلى التخلص من المعايير والهويات القائمة مسبقا، بغية تكثيف الوجود. دولوز، مؤرخ أصيل للفلسفة، ومفجر للفكر المعاصر، لم يتوقف عن اتباع مسارات للانفلات عن الفلسفة الكلاسيكية والمعاصرة ضاربا عرض الحائط بقيود التفكير الأرسطي. ورغم تعدد اهتماماته، فإن الفلسفة تبقى الحقل النوعي بامتياز حسب دولوز، باعتباره :«النشاط الذي يخلق المفاهيم» التي تتوخى معانقة الواقع في تعدديته، لرصده في سياقه واستنباط العناصر الغير متجانسة، التي تفتح ممكنات نحو مغامرات فكرية لانهائية.

- الكتاب: سبينوزا ودولوز: قراءات متقاطعة.
- المؤلف: مؤلف جماعي تحت إشراف: باسكال سيفيراك و أن سوفنيارغ.
- الناشر: منشورات المدرسة العليا للأساتذة، ليون، فرنسا. سلسلة «ملتقى الطرق»، ٢٠١٦.

اللغة: الفرنسية.

عدد الصفحات: ١٩٢ صفحة.

*** كاتب مغربي**

القيمة الاقتصادية للغة الإسبانية.. اللغة والشركة والسوق.. هل ساهمت اللغة الإسبانية في عملية التدويل؟

كلثوم بو طالب *

يقدم هذا الكتاب «القيمة الاقتصادية للّغة الإسبانية: اللّغة، والشركة، والسوق. هل ساهمت اللغة الإسبانية في عملية التدويل؟» دراسة تحليلية مُوثّقة وشاملة عن الدَّور الذي تلعبه اللغة في عملية تدويل الاقتصاد، وجاء هذا الكتاب ضمن مشروع بحثي مُميّز وموسوم بـ «القيمة الاقتصادية الأوروبية»، ومكمّلاً للأجزاء الأخرى وعددها أربعة عشر مجلّدا تمّ نشرها منذ سنة ٢٠٠٧، وهي أعمال بحثية قدّم فيها الباحثون المتخصّصون في مجال الاقتصاد حججًا وبيانات ومُعطيات مقنعة عن الواقع الاقتصادي الأوروبي وعلاقة هذا الواقع باللّغات المستعملة في المعاملات التجارية وبين الشركات. واستثمرها الباحثون المؤلّفون لهذا الكتاب ليتّخذوها أساساً وقاعدة بيانات من أجل مزيد من تعميق البحث في هذا المجال، وكانت النتيجة هي هذه الدراسة الأكاديمية وهذا البحث المحكم.

يتمثل الهدف الرئيس لهذا الكتاب في تمكن المؤلفين من سبر أغوار اللغة الإسبانية وقدرتها على تسهيل التبادلات التجارية وخلق الاستثمارات والمشاريع الاقتصادية في شتى أنحاء العالم. وتحيلنا أهميّة هذه اللغة إلى حقائق بالغة الأهمية، فقد ساهمت اللغة الإسبانية في مضاعفة التبادلات التجارية أربع مرات بين الدول الناطقة بالإسبانية، كما أنها ضاعفت الاستثمارات الأجنبية المباشرة سبع مرات.

وينطلق المؤلفون لهذا الكتاب من فكرة اعتبار اللغة رصيداً قوميّاً وثروة كبيرة لها دور مهم في مسار نمو الاقتصادات القوميّة والإقليمية والدولية، فقيمة اللغة هي من عوامل الوجه الاقتصادي للّغات. ولكن هذه القيمة الاقتصادية للغات تواجه عراقيل كبيرة في تأدية دورها التنموي، خاصّة في بعض البلدان التي تعرف تنوّعاً لغويّا، مما يجعل هذا العامل يؤثّر إما إيجاباً أو سلباً على الحياة الوظيفية للغات.

صدر هذا الكتاب في سنة ٢٠١٦ عن دار النشر تيلفونيكا، وهو مؤلّف جماعي قام بتأليفه ثلاثة باحثين إسبان وهم: خوسي لويس غارسيا ديلكادو، وهو كاتب حاصل على الدكتوراه في تخصص القانون والعلوم الاقتصادية والسياسية، والأستاذ خوان كارلوس خمينث أستاذ متخصص في الاقتصاد التطبيقي، بالإضافة إلى الدكتور خوسي أنطونيو ألونسو المتخصّص في العلوم الاقتصادية. ويقع هذا الكتاب في ٢٤٤ صفحة، ويتكون من ستة فصول.

استهل المؤلّفون الفصل الأول بالتذكير بالوظائف الثلاثة التي تتولاّها اللّغة من منظور اقتصادي باعتبارها وسيلة تواصل في المعاملات التجارية والاقتصادية بين الأطراف المتعاقدة، وهي تعزز بذلك الكثير من فضاءات العمل كالأسواق والمعارض الدولية والشركات، كما تُساهم في توطيد العلاقات الاقتصادية.

وتضمن الفصل الثاني عرضاً مختصراً للمقترحات النظرية التي بذل الباحثون المؤلفون للكتاب مجهوداً كبيراً في تفسيرها ودراستها وشرح مشروع التدويل الذي تقوده إسبانيا في المجال اللغوي الناطق باللغة الإسبانية، حيث أكّد الباحثون على الدور الذي تلعبه اللغة في هذه العملية. فيما جاء الفصل الثالث مكمّلا للفصل السابق ومن خلاله قام الباحثون بمراجعة النظريات والمدارس التي تحظى بأهمية كبيرة في هذا المجال، وبالخصوص تلك التي تعتبر اللّغة جسراً للتواصل وتضع اللّغة الإسبانية تحت الأضواء.

وفي الفصل الرابع تناول الباحثون دراسة الآثار الجانبية للغة الإسبانية على كل من التبادلات والمعاملات التجارية الدولية، سواء تلك المُتعلقة بالتجارة أو بالاستثمارات. ويضم الفصل الخامس نتائج الاستبيانات واستطلاعات الرأي التي وجّهها الباحثون لمجموعة واسعة من الشركات الإسبانية لرصد مدى تأثير اللغة الإسبانية في المُعاملات التجارية، وقد أضفت النتائج المحصّل عليها طابعاً علمياً توضيحياً لهذه الدراسة ولهذا المجهود الأكاديمي الذي يستحق التنويه. أمّا الفصل السادس والأخير فقد جاء ليزكّي ما ورد في الفصول السابقة وقام فيه الباحثون بتجميع عدد من الآراء في إطار المقابلة التي أجراها المؤلّفون مع كبار مديري الشركات المتعدّدة الجنسيات.

يعتبر التعدد اللغوي مؤشّراً على الثراء الاجتماعي باعتبار اللغة رصيداً. ويلاحظ أنّ عدد اللغات في الدول الصناعية يكون في خانة الآحاد، بينما يكون عددها في الدول النامية في خانتي العشرات أو المئات. والعلاقة الموجودة بين التعدد اللغوي والثراء الاجتماعي، وبين الأحادية اللغوية والتطور الاقتصادي الحاصل في البلاد المُصنّعة هي علاقة معقّدة. ففي الاقتصاديات الأكثر تصنيعاً، تتمتع لغات عدّة بوضع رسمي، لكن تجعل الدولة السيادة للغة واحدة، ويمكن اعتبار دولة سويسرا هي الاستثناء الوحيد باعتبارها دولة تستعمل ثلاث لغات لثقافات كبرى مجاورة مما أنتج مكوّناً إيجابيّا ضمن مكوّنات الهويّة القومية. وهنا يمكننا أن نستنتج أن التعدّد اللّغوي قد لا يتواكب مع الرخاء الاقتصادي لأنه يرتبط بمستوى منخفض من التنمية الاقتصادية خاصّة في بلدان تفتقر للغة المشتركة، بينما هو يتواكب مع الرخاء الاقتصادي عندما يتعلّق الأمر بلغات خاصّة معيّنة، وهي في حالة سويسرا اللغة الألمانية والفرنسية والإسبانية.

وقد أشار الباحثون إلى اتساع رقعة الدول الناطقة باللغة الإسبانية عبر العالم، الشيء الذي مهّد الطريق لتدويل ونشر الاقتصاد الإسباني. وأشار الباحثون إلى وضعية اللغة الإسبانية التي تعرف انتشاراً واسعاً في العالم بسبب التوسّع الاستعماري الإسباني خلال القرون الماضية. وهناك بعض الدول التي تعتبر اللغة الإسبانية لغة رسمية لها، كما تتمتّع اللغة الإسبانية بوضع خاص في عدة دول، فقد لا تُعتبر لغة رسميّة فيها ولكن يتم استعمالها بشكل ملحوظ في النظام التعليمي وفي الإعلام، وفي الأوراق الرسمية أيضاً.

وقد عزّز الباحثون نتائج بحثهم بمجموعة من الوثائق وهي عبارة عن مبينات إحصائية واستمارات وأسئلة موجهة للشركات ولمُديريها، كما تتضمن جدولاً يحتوي على قائمة الدول الناطقة باللغة الإسبانية وتربطها بإسبانيا علاقات ثقافية واقتصادية متينة ومبادلات تجارية واستثمارات مباشرة في أفريقيا وفي أمريكا اللاتينية. وتوضح المبينات الإحصائية عدد قنوات التواصل بين الشركات الإسبانية التي عرفت استثمارات مهمة وصادرات ومبادلات تجارية ضخمة في أمريكا اللاتينية في سنة ٢٠١٤، وتوضّح هذه المبينات القدرة الشرائية للمواطنين الناطقين باللغة الإسبانية في العالم خلال سنة ٢٠١٠.

نستخلص إذن من خلال هذه الوثائق التي تمّ إدراجها واستعمالها في البحث، أن المؤلفين أرادوا التنويه باللغة الإسبانية وبأهميّتها وبوزنها الاقتصادي بالنسبة للدول الناطقة بالإسبانية وبالنسبة لباقي العالم، حيث ساهمت في خلق مبادلات تجارية واستثمارات مهمّة وفي بناء علاقات واسعة وضخمة، فاللغة الإسبانية تشكل عاملا أساسيّاً في عملية تدويل الاقتصاد الإسباني واقتصاد الدول التي تنتمي إلى المجال الثقافي والجغرافي الناطق بالإسبانية.

ويقول المؤلّفون إن ظاهرة التدويل أصبحت اليوم أمراً

واقعاً وضرورياً، ومآلاً منطقياً من أجل توسع جغرافي لنشاط المنشآت والشركات الاقتصادية خارج الحدود الوطنية، ويُعدُّ التدويل وسيلة لدخول الأسواق العالمية، ويرجع هذا الأمر لما يعرفه العالم من ثورة تكنولوجية هائلة، وبروز لدور الشركات المتعددة الجنسيات وتحرير واسع لنطاق الاقتصاد والتجارة الدولية. فالتدويل يحتمل صيغاً مؤسسيّة مختلفة وفقاً لمدى وجود الشركة في الأسواق الخارجية، وهي صيغ تحتمل التغيير مع مرور الوقت، إلا إذا كانت للشركة بصمة ووجود كبير ولها تجارب مهمة في الساحة الدولية.

قدّم الباحثون النظريتين المعروفتين والأكثر تداولاً في مجال التدويل إلى حدود الساعة وهما نظرية التدويل ونظرية النهج الانتقائي، فهاتان النظريتان تخلصان إلى أنّ عملية التدويل تستند على بديهيتين أساسيتين: أولاً: أن الشركة تحدد موقع أنشطتها حيث تنخفض التكاليف، ثانيًا: تنمو الشركة بتدويلها في مجموعة واسعة من الأسواق. ونشير إلى أن عملية التدويل تبدأ في الوقت نفسه حين تشكل الأسواق الخارجية مرجعاً أساسيًا للقرارات الإستراتيجية للشركة، فعمليّة التدويل لديها العديد من أوجه التشابه وعملية التجديد والتغيير التنظيمي الهيكلي داخل الشركة.

يؤكّد الباحثون وعلى مدى هذه الدراسة الأكاديمية، أن اللّغة المشتركة هي عامل أساسي في تحسين معرفة حاجات الأسواق العالمية وبناء علاقات قوية مع الأسواق الخارجية، وتقليص المسافة بين البلدان وتقريب اللغة المشتركة بين هذه الأسواق الدولية من المنتجات التي يتمّ تسويقها، وتساعد كذلك في إتمام المعاملات التجارية والاستثمارات. وكان المؤلّفون قد أشاروا إلى أن اللغة المشتركة تشكل عاملاً أساسياً في تخفيض تكاليف المعاملات في التدفقات الاقتصادية الدولية، فتوسيع الشركة في دول ناطقة باللغة الإسبانية يساهم في تخفيض تكاليف المعاملات الاقتصادية ويُعد هذا ربحاً لصالح الشركة. فاللغة المشتركة لا تؤثّر على المبادلات الخارجية فقط، بل تؤثر كذلك في وحدة الأعمال التجارية، وتسهل بذلك الأنشطة المتعلّقة بالتدبير والتنظيم. نستخلص إذن أنّ اللغة إذا لم تكن مشتركة فهي تشكل عائقاً كبيراً في عملية التواصل بين مقر الشركة وفروعها وخصوصاً الشركات المتعدّدة الجنسيات. ويعد فرض اللغة على الشركة أو اعتماد لغة مُشتركة، ثم القيام بتكوين في اللغة، من بين الحلول المعتمدة حالياً في أغلب الشركات المتعددة الجنسيات التي تعاني من مشكل غياب اللغة المشتركة. وجب التأكيد هنا على أن اعتماد الشركة على لغة ذات انتشار واسع دوليًا يعد ميزة تنافسية بالغة الأهمية في عملية التدويل.

ولم يغفل الباحثون الإشارة إلى أن اللغة تعدّ أصلا تجارياً غير ملموس، غير أنها تُعدّ أيضاً من بين الأساسيات، فهي جوهر التدويل الاقتصادي. وعندما تعتمد الشركة لغة عمل مشتركة في مختلف مقرّاتها فهي تمنح لنفسها ميزة تنافسية مقارنة مع باقي الشركات.

وفي المقابل قام الباحثون بتسليط الضوء على تأثير اللغة الإنجليزية في التدفقات التجارية وفي مجال الاستثمارات

وفي صيرورة الاقتصاد في العالم الإنكلوساكسوني، ولم يكن الهدف بالنسبة للكتاب تقييم أهمية اللغة الإنجليزية كلغة مشتركة في إدارة الأعمال الدولية، بل كانت تهدف إلى مقارنة تأثيرات اللغتين الإنجليزية والإسبانية معاً في إطار المجالات التي تشكلان فيها اللغة الأم. ومن خلال هذه المقارنة يستخلص المؤلّفون أنّ الدول الإنكلوساكسونية تخوض في مجال التجارة والاقتصاد نظراً لميزاتهما الاقتصادية والمؤسساتية، بغض النظر عن اللغة التي تجمعهم، في حين الدول الناطقة بالإسبانية فهي تعتمد لغة مشتركة وتعد هذه اللغة أساس العلاقات الاقتصادية.

يحاول المؤلفون في هذا الكتاب تسليط الضوء على إمكانات اللغة الإسبانية كلغة يتحدّث بها أزيد من ٥٠ مليون شخص في جميع أنحاء العام، ويصنفون اللغة كعامل محفّز للتبادلات التجارية بين الدول وكذا في مشروع التدويل خاصّتها. و يشير الكتاب الى أنه بالرغم من فقد أمريكا اللاتينية أهميتها كوجهة للصادرات الإسبانية، فما زالت إسبانيا باعتبارها دولة من دول الاتحاد الأوروبي ذات أهمية تجارية قصوى في المنطقة وما زالت اللغة الإسبانية هي العامل الحاسم في ذلك. هكذا تعمل إذاً اللغة المشتركة على تحسين التواصل الجيد بين الشركات، وتقليص تكلفة المعاملات الروتينية، كما تساعد على اختيار المديرين وتوسيع الهيكلة الإدارية في الأعمال التجارية الدولية، وتزيد من تماسك الوحدة الداخلية على جميع المستويات.

قدم الباحثون نتائج الدراسة التحليلية انطلاقاً من استطلاعات رأي واستبيانات وجهت لمجموعة واسعة من الشركات الإسبانية، استنادا إلى قاعدة بيانات واسعة من المعهد الإسباني للتجارة الخارجية، وقد وزعت هذه الاستمارات على الشركات المصدرة وكذا الشركات الكائنة بالخارج، وتمت هذه الدراسة خلال شهر أكتوبر ونوفمر سنة ٢٠١٤، وكانت النتيجة جدا إيجابية تمثلت في ١,٧٠٥ إجابة إيجابية من قبل الشركات المصدرة و ٦٤ إجابة إيجابية من قبل الشركات الكائنة بالخارج.

يخلص الكتاب في خاتمته إلى أنّ الهدف من هذه الدراسة التحليلية هو معرفة تأثير اللغة الإسبانية على المعاملات التجارية للدول الناطقة بهذه اللغة التجارية وتقييم دور اللغة في صيرورة مشاريعهم الخارجية. ففي أحد الاستبيانات جاء السؤال الآتي موجهًا إلى الشركات: أ يكون من السهل تسويق العلامة التجارية في أسواق تعتمد لغة أخرى غير اللغة الإسبانية فكان الجوب « لا» بنسبة ثلاثة وخمسين في المائة. فيما كانت الإجابة على السؤال التالي إيجابية بنسبة سبعين في المائة، وهذا السؤال هو: هل تشكّل الفروق اللغوية عائقاً من أجل مشروع التدويل؟ . وقام الباحثون بمقابلة مجموعة من مديري الشركات المتعددة الجنسيات رفيعة المستوى، وتتكون هذه المجموعة من ثلاثين شركة مُتعددة الجنسيات معروفة عالميًا، من أجل الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتعلق باللغة ودورها في التدويل وتأثيرها في المجال الاقتصادي والتجاري، وكانت النتيجة موحدة عند جميع المديرين الذين أكدوا بأنّ اللّغة الإسبانية تعدّ ميزة تنافسية هائلة في شبه الجزيرة الايبيرية وأمريكا، وهذا ما يؤكّد لنا أن مجموعة واسعة من الشركات الإسبانية قامت بعملية توسيع شركاتها عبر العالم في البلدان الناطقة باللغة الإسبانية وبالتحديد في أمريكا اللاتينية. وكل هذه النتائج والإجابات تؤكد لنا أهمية اللغة المُشتركة وضرورتها وحاجة الشركات العالمية إليها، بالتحديد اللغة الإسبانية في إتمام ونجاح عملية تدويل الشركات وتوسعها.

ومع الأسف، رغم وضوح دوافع الحجج التعليمية والاقتصادية الداعية للاستثمار في اللغة الإسبانية، لم يقتنع المغرب- نموذجاً- الذي لا تفصله عن جارته إسبانيا في الضفة الشمالية للمتوسط إلا أربعة عشر كيلومتراً، ويضم أكبر عدد من المراكز اللغوية الإسبانية في الخارج، وللغة الإسبانية جذور قوية في شماله وفي جنوبه، لم يقتنع بالجدوى الاقتصادية والمهنية لتعلمها رغم إصرار إسبانيا في المراهنة على تعزيز الحضور الاقتصادي لبلدهم الذي يعدُّ من أهمّ المستثمرين في المملكة، في وقت تتسع قائمة كبريات الشركات الإسبانية التي تتخذ المغرب قاعدة لأنشطتها الدولية. وهو ما نلاحظه من تراجع لهذه اللغة في المدارس المغربية لصالح اللغة الإنجليزية والفرنسية.

الكتاب: القيمة الاقتصادية للغة الإسبانية، اللغة، والشركة، والسوق. هل ساهمت اللغة الإسبانية في عملية التدويل؟

المؤلفون: خوسي لويس غارسيا ديلكادو، خوان كارلوس خمينث، خوسي أنطونيو ألونسو.

اللغة: الإسبانية.

دار النشر/ السنة: دار النشر تيلفونيكا، سنة ٢٠١٦.

عدد الصفحات: ٢٤٤ صفحة.

* باحثة مغربية في الأدب المقارن

مواقع التواصل الاجتماعي
التكنولوجيا الجديدة لإدارة العالم ... لماريا فيل

أحمد الرحبي *

قد يبدو العنوان الذي وضعته الباحثة الروسية في العلوم الاجتماعية ماريا فيل لكتابها الجديد مألوفاً للقارئ بعد أن تمّ استهلاكه في عالم الكتب والصحافة والإعلام حتى فقد الكثير من بريقه. ولكن لا يُعرف الكتاب دائماً من عنوانه. فظاهرة مواقع التواصل الاجتماعي التي ترسخت في حياتنا وشارفت على أن تكون روتينًا نافذا فيها، رغم ذلك مازالت تستدعي الجدل في الصحافة ومازالت مواضيعها تتصدر جداول المؤتمرات وتجتذب الدراسات العلمية.

يرصد كتاب «مواقع التواصل الاجتماعي.. التكنولوجيا الجديدة لإدارة العالم» ظاهرة مواقع التواصل الاجتماعي بمنهجية تاريخية نفسية: يعود إلى منابع التواصل المجتمعي وينظر إلى آلياته ويجس نتائجه وتداعياته.

ومنذ الصفحات الأولى تحيطنا الكاتبة بطبيعة البحث الذي ترومه فتستشهد بحكاية شرقية شائقة تقول إنّ أميرا تسلّم فيلا كهدية، ولم يكن قد شوهد مثل ذلك الحيوان في المملكة. قيد الأمير حيوانه العجيب في غرفة مُظلمة وجاء بأربعة من جلسائه ليخبروه عن الحيوان الطارئ. قال الأول بعد أن لمس قدم الفيل إنه عمود. وأفتى الثاني أن هذا الشيء حبل فقد أمسك بذيل الفيل. أما الثالث فقال إنه وجد سيفًا حين تعثر بناب الفيل، وقرر الأخير أن الشيء الذي أهدي للأمير ما هو إلا خزان كبير وذلك عندما وقعت يده على بطن الحيوان. النتيجة أن تصريحات الأربعة عن كنه ما وجدوه كان منطقياً وبالتالي حقيقيًا، بيد أنهم، وحينما كان حظهم من الحقيقية قسما منها وليس كلها فقد انكسر منطقهم وانحرفوا عن الصواب. وكما ترى الباحثة فالحال كذلك عند مناقشتنا لظاهرة الإنترنت التي تضيع جدواها وتعتل فحواها حين نُديرها بالتجزئة وهو الأمر الذي يحدث في غالب الأحيان.

يحيط الكتاب بمسألة مواقع التواصل الاجتماعي من مختلف جوانبها وبأسلوب منهجي. وقد ارتأت الباحثة تقسيمه إلى أربعة فصول، أو فلنقل أربع زوايا تمتد عبرها مناشط هذه المسألة التي تتضح تعقيداتها عند تظهيرها نظريا. الفصل الأول بعنوان «مواقع التواصل الاجتماعي في نظام العلاقات العامة» وتبحث فيه الكاتبة في أصول ونشأة شبكة الاتصال بين البشر التي تعود إلى قرون ماضية، وترسم لنا الشبكة بصفتها آلة لتلبية الاحتياجات النفسية لدى المجتمع الحديث كما تفضح أسطورة القرية العالمية. الفصل الثاني: «مواقع التواصل الاجتماعي، ظاهرا وباطنا» وتشاطرنا فيه المؤلفة أفكارها عن تصنيفات الشبكات الإلكترونية وأنواعها وعن خصائص عملية تشّكل وتغير جمهورها، بما في ذلك التغيرات غير المتوقعة أو الطارئة التي تحيق بها. في الفصل نفسه تضع الباحثة مقارباتها حول نشاط الحسابات الخاصة وتكنلوجية تعزيز المواقع وضخ المعلومات في شبكة التواصل الاجتماعي. الفصل الثالث: «سلوك الفرد في مواقع التواصل الاجتماعي» مُكرس لإستراتيجيات المشتركين في المواقع بما في ذلك القيام بحجب الهويات أو التستر خلف أسماء مستعارة، كما تناقش الكاتبة قضية الإدمان على الإنترنت واستفحال الضرر المترتب عليه. وتذهب الكاتبة في الفصل الأخير من كتابها والذي حمل عنوان «الهيمنة على الرأي العام في مواقع التواصل الاجتماعي» إلى المقارنة بين الإعلام التقليدي والحديث (الإلكتروني)، وفيه تتطرق إلى مخاطر التفكير المقطعي (سيأتي الحديث عنه لاحقًا) الذي ما برح يتوسع في فضاء الشبكة العنكبوتية. وفي هذا الفصل تناولت الكاتبة بشكل تحليلي مراحل تشكل الرأي العام في الإنترنت ودور مواقع التواصل الاجتماعي في بلورة المواقف السياسية، كما أوردت حالات مُختلفة لمنع استخدام المواقع والنتائج التي أفضت إليها مثل هذه الإجراءات.

إنَّ أكثر ما اتسمت به دراسة ماريا فيل وميز إطارها العام هو عمقها النفسي. فحينما تقوم بالتصدي لمسألة الشعبية الواسعة لمواقع التواصل الاجتماعي، لا تقرن ذلك بظهور الأجهزة الإلكترونية المتطورة أو البرامج المتقدمة وإنما بعامل نفسي ورغبات كامنة لدى مستهلكي الإنترنت تدفعهم إلى الركون إلى الإنترنت لإشباع تلك الرغبات. بعبارة أخرى تضع الباحثة الإنترنت في مرتبة ثانوية من المشكلة وذلك على الرغم من إمكانياتها الهائلة وطبيعتها المتطورة.

تؤكد الكاتبة أنّ الطفرة العلمية الكبيرة التي شهدها المجتمع الحديث طبعت أثرها العميق على الأفراد وأخرجت إلى الوجود شخصية عامة جديدة لم تكن متعينة في السابق إلا في أوساط النخب وعلية القوم. فها هي الحاجات الفيزيولوجية والمادية لدى غالبية البشر، وبفضل التطور العلمي، قد تم إشباعها، ولم يتبق شيء لتحقيقه سوى الرغبات العليا كالمعرفة والنجاح ونيل الاحترام والانسجام والجمال والخصوصية وغيرها من المتطلبات التي كانت في الماضي حكراً على النخبة وحدها. وفي هذا الشق من القضية تحدد ماريا فيل مسار فصلها بطرح السؤال التالي: هل بإمكان الإنترنت تلبية كل تلك الرغبات العليا؟ تقول في هذا الصدد: «تجوز المقارنة بين مقدرة الجمهور على تلبية حاجته في التعبير عن الذات (عبر الإنترنت) وبين المجاعات الجماعية. في بداية ومنتصف القرن العشرين واجهت البشرية شبح المجاعات الكبرى، وكان السؤال المُلح آنذاك أن تُطعم الأفواه بما تيسر من طعام وذلك بصرف النظر عن طبيعة الطعام ونوعيته. أدى ذلك الوضع إلى ابتكار الوجبات السريعة والأطعمة المعدلة وراثيًا واستبدال جزء من الطعام بالهرمونات والبروتينات المصنّعة. ومع كل ما طرأ من تغيرات في عادات التغذية إلا أنَّ الإنسان استطاع أن يكسب معركته مع الجوع. اليوم، وبعد أن أطعمت وكسيت غالبية البشر فقد حان الوقت لجوقة الروح أن تصدح وتعبر عن نفسها. وحتى الأمس القريب كان على الفرد امتلاك موهبة خاصة وطاقة وافرة لإظهار شخصيته وإثبات فرادته، علاوة على ضرورة توفر الظروف المناسبة والفرص السانحة لتحقيق المرغوب فيه. بيد أنه، ومع توفر الموارد الإلكترونية، أصبح الطريق لتحقيق هذا الهدف

معبدا وسهلا وأكثر ضمانة ناهيك عن كلفته المتدنية وقلة الموانع الأخلاقية. أما الفارق بين الوسيلة الحديثة للتعبير عن النفس وبديله التقليدي العتيق فيشبه الفرق بين الطعام الطبيعي والآخر المُصّنع» (ص ٢٥ – ٢٦)

تعتقد الباحثة ألا دور إيجابيا واضحا لمواقع التواصل الاجتماعي ولا فضل لها في صحة الحياة النفسية لمستخدميها، فهي (تلك المواقع) وبرغم تلبيتها لجوانب من الضرورات المعنوية لدى الناس، إلا أنّها لا تقوم بذلك مجانًا، وبحسب وصف الكاتبة فإنَّ العلاقة بين المُشترك والشبكة شبيهة بالتمارين التي تخضع لها بعض الحيوانات، فإن هي نفذت ما يُطلب منها نالت قطعة السكر وإن لم تفعل حُرمت من المكافأة. وتشرح ماريا فيل فكرتها هذه بمثال صميمي من عالم مواقع التواصل، ففي حالات كثيرة يصاب المُشترك بخيبة أمل عندما لا يتلقى الاستجابة المرجوة لمنشوره، فتساوره الظنون أن ما كتبه عديم القيمة أو أنه محض غباء. وقد ساقت الكاتبة في بحثها وقائع كثيرة من حالات الانهيار العصبي والجنون التي تعرض لها المشتركون في الشبكة نتيجة المبالغة المرضية في التفاعل معها. هاكم الفتاة الصربية «سنيجانا» التي أسعفت إلى مستشفى تخصصي للأمراض النفسية عام ٢٠١٣ وذلك بعد أن حُرمت من أي تعليق من قبل أصدقائها على منشورها في الشبكة، وقد أدخل الطب النفسي مصطلحا علمياً جديدًا للتعبير عن هذه الحالة المرضية.

لا تخلو من أهمية ملاحظات الكاتبة عن كيفية تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على طريقة تفكيرنا وتحفيز ما يسمى بالأسلوب المقطعي في التفكير، وهو أسلوب لا تنتفي فائدته في حالات التمحيص السريع لكمية كبيرة من المعلومات وذلك لاستيعاب مضمونها العام. بيد أن اتخاذ القرارات الجادة كالاشتراك في مظاهرة سياسية أو شراء بضاعة غالية الثمن فإن التفكير التقليدي هو العلاج المضمون وربما الوحيد. ويكمن خطر التفكير المقطعي في فتح الباب واسعاً أمام التأثير على المشاعر والتلاعب بعواطف الناس وانفعالاتهم. تختار الكاتبة لشرح مقولتها هذه مثال الإستراتيجية المعلوماتية لتنظيم داعش وتقول: «وضع التنظيم في اعتباره أن الأعمال الإرهابية التقليدية، ومع أنها تحصد عددا كبيرا من الضحايا، إلا أنها لا تترك الانطباع المرجو لدى المُشاهد الذي لم يزل بعيدا عن موقع الحدث، جسدا ووجدانا. في كل يوم تقع الكثير من المآسي التي تلتقطها كاميرات وكالات الأنباء. لقد اعتاد المشاهدون على رؤيتها ولم تعد مبعثاً للخوف أو الترهيب. ولكن الأمر مختلف كلية حين يجد الشخص الغربي نفسه شاهدا – وإلى

حد ما مشتركا – في إعدام أحد مواطنيه ويعايش الحدث عبر البث المباشر. لقد كان التنظيم واعياً لأدق التفاصيل: القيمة العالية للحياة في المجتمع الغربي، الفضول الطبيعي واللاواعي للمناظر الدموية، التطابق بين الضحية والمُشاهد في مختلف الأوجه والصفات» (ص ١٢٠ – ١٢١)

ميزة أخرى تضمنها الكتاب حين احتوى على بحث دقيق عن التضخيم المتعمد والمخطط له لدور مواقع التواصل الاجتماعي في تغيير الأنظمة السياسية في بلدان ما عرف بالربيع العربي. لقد حاولت الباحثة، اعتمادا على البيانات الإحصائية والمؤشرات النفسية أن تثبت فرضية أن مواقع التواصل الاجتماعي قامت باختراع وإثبات واقعية لم تكن موجودة أصلا. تتسائل الكاتبة عن أحقية أن نسمي الثورة المصرية التي أطاحت بنظام مبارك عام ٢٠١١ بثورة تويتر، وتكتب في هذا الصدد: «تشير الإحصاءات أن مواقع التواصل الاجتماعي لم تكن منتشرة في العالم العربي (آنذاك) بسبب قلتها نتيجة الفقر والتمسك بالنمط التقليدي للحياة. ثمة البلدان المصدرة للنفط من كانت على رأس قائمة المشتركين في مواقع التواصل الاجتماعي، حيث مستوى الحياة فيها أعلى بكثير من غيرها من البلدان العربية. استنادا إلى هذا تبدو العلاقة مريبة بين انتشار استخدام الشبكة والتطورات السياسية (في بلدان الربيع العربي) التي كانت وجهتها إحلال الديموقراطية. وبالمقابل (وهنا تكمن المفارقة) نجد أن شعبية مواقع التواصل الاجتماعي كانت أكثر اتساعا في البلدان ذات النظم الملكية التي لم تزمع لأي تغييرات سياسية. وبحسب معطيات التقرير العربي للإعلام فقد بلغ عدد مستخدمي تويتر في مصر عام ٢٠١١ حوالي مئة وعشرين ألف مستخدم وذلك في بلد يفوق تعداده أكثر من خمسة وثمانين مليون نسمة. والحال كذلك، واستنادا إلى هذه الأرقام، فهل يليق التحدث عن تأثير شبكات الانترنت على الجمهور؟ إن الحد الأقصى الذي بلغه تأثير الشبكة لا يتعدى أوساط النخب في كل من القاهرة والإسكندرية» (ص ١٣٩). انطلاقا من هذا التحليل تفترض المؤلفة أن دور مواقع التواصل الاجتماعي في سير أحداث الربيع العربي منحصرة في ثلاث نقاط: خلق صورة إعلامية برّاقة للانتفاضة الشعبية، التبشير بفاعلية مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير السياسي، وأخيرا رفع رصيد هذه المواقع وتهيئتها للانتشار الشعبي ... الأمر الذي حدث لاحقا.

بعد معالجة البيانات الإحصائية تتوصل الباحثة إلى استنتاج يوضح ويبرر الصورة الضبابية لمواقع التواصل الاجتماعي، فتقرر أنَّ الوقت كفيل بوضع الأمور في نصابها، وأن الجدل الدائر حول هذه المواقع لا شك سيخفت ويفقد حدته وسوف تحتل مواقع التواصل الاجتماعي مكانها الطبيعي في مجال الإعلام والاتصالات العامة، حالها في ذلك من حال التليفزيون الذي تنبأ الخبراءُ عند ظهوره باختفاء الإذاعة والسينما والمسرح ... وهو ما لم يحدث. وتعزز ماريا فيل استنتاجها هذا بالبيانات التي تشير إلى تراجع أعداد مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي، مؤكدة أن نموها الانفجاري أصبح خلفنا.

وتورد الباحثة الروسية نتائج لدراسة أجرتها شركة «يوغوف» عام ٢٠١٤ التي بموجبها انخفض اهتمام خمسة وخمسين بالمائة من مستخدمي شبكة الإنترنت بمواقع التواصل الاجتماعي. كما أعلن أكثر من ربع المشاركين ممن شملتهم الدراسة عن رغبتهم في حجب حياتهم الشخصية عن الآخرين وإلغاء حساباتهم الخاصة.

يساعدنا هذا الكتاب على صياغة رؤية جذرية ورصينة لشبكة الإنترنت عموما ومواقع التواصل الاجتماعي بوجه خاص. كما ينبه إلى تقنية التلاعب بالرأي العام من خلال بث الأفكار والدعاية المغرضة، ويرسم للقارئ خارطة الألغام المفخخة في الواقع الافتراضي وكيفية تجنب مضارها.

الكتاب: مواقع التواصل الاجتماعي: التكنولوجيا الجديدة لإدارة العالم.
المؤلف: ماريا فيل.
الناشر: جامعة سينيرجيا، موسكو ٢٠١٦
اللغة: الروسية.
عدد الصفحات: ١٩٢ صفحة.

* كاتب عُماني

ثمة مخطئون في الإنترنت: دراسات علمية في مسائل جدلية لآسيا كازانتسيفا

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

تشهد الصحافة العلمية تطورا ملحوظا في وقتنا الراهن، وأصبحت المجلات العلمية تزاحم الدوريات الأدبية وسواها من المنشورات الورقية. وتدريجيا أخذ القرآء يعتادون على الصحافة العلمية وأصبحت لها شعبية متزايدة لا سيما في المدن والمراكز الحضرية، فخصصت لها المحاضرات وحظيت باهتمام البرامج التلفزيونية كما تقام لها المهرجانات الترويجية. وفي المتاحف يتم الترويج لها من خلال البرامج التفاعلية مع الجمهور والفعاليات المخصصة للأطفال، كما بدأت الجامعات بإنشاء أقسام تعليمية يتخرج منها الطلبة بمسمى «صحفي علمي».

وفي أوساط صحافة العلوم، وبين الصحفيين العلميين (أي أولئك الذين يكسبون معاشهم من كتابة المقالات الصحفية عن العلوم باختلافها وفي مقدمتها الطب) تتعايش وتتنافس مقاربتان اثنتان لكل منهما طريقته وصياغته الخاصة لمعالجة المعلومات ألا وهما صحافة الدراسات وصحافة الخبر. ولتوصيف كل من هذين المجالين ومن يعمل فيهما، نجد أن العاملين تحت مظلة صحافة الدراسات غير معنيين بالاحتكاك المباشر بالجمهور ولا يظهرون في أماكن الأحداث والوقائع، وجل عملهم يتركز على قراءة المنشورات العلمية، وغالبيتها من المجلات الطبية، ليصيغوا منها بعدئذ مقالاتهم المُبسّطة. وهذا على العكس من صحافة الخبر، فهناك لا يهتم الصحفي بالمقالات العلمية، ونادرا ما تستوجبه طبيعة عمله قراءتها، فأساس عمله يكمن في تسقّط الأخبار من مصادرها، فتراه يبحث عن هذا الطبيب أو ذاك العالم ليأخذ تصريحا مباشرا منه؛ وبهذا الإجراء، أي الإتيان بالمعلومة من مصدرها، يصيغ الصحفي خبره، غير عابئ بعدها إن كان الخبر مؤكدا أم أنه ضرب من المبالغة والترويج. ولا يهتم صحفي الخبر إن كانت المعلومة العلمية التي تحصّل عليها مستوفية للشروط المختبرية أو الإجرائية وهل تم الإجماع على صحتها في الأوساط العلمية. كل ذلك لا يدخل في إطار عمله، المهم أنها جاءت من المصدر وكأن الحقيقة، كل الحقيقة، تكمن في هذه الجزئية وحسب! علما بأن هذه الفئة من الصحفيين «العلميين» عادة ما تعوزهم المعرفة الكافية في المجالات العلمية التي يدبجون حولها أخبارهم، فيكتفون منها بما يساعدهم على إكمال أعمالهم (أو ما يظنونه اكتمالا) ليس إلا.

تمثل الكاتبة الروسية آسيا كازانتسيفا صحافة الدراسات العلمية بامتياز، ولها باع طويل في هذا المجال، كما حازت جائزة «التنويري» الروسية للدراسات العلمية عام ٢٠١٤ عن كتابها «من توقع هذا؟ كيف يدفعنا العقل إلى ارتكاب الأخطاء». تقول كازانتسيفا عن مقصدها لتأليف الكتاب الذي بين أيدينا: «ثمة أشياء قليلة جدا أستطيع الوثوق بها من دون تقصي مصادرها، ومن بينها ثقتي بأن الاعتياد على النشاط الذهني كفيل بتغيير أدمغتنا وتوجيه أفكارنا الجهة الصحيحة. إن الإبقاء على الذهن متقدا ونشطا يعد مولّدا أساسيا للشبكات العصبية في الدماغ، والتي يندر بوجودها أن يكون الشخص غبيا، شرسا أو كئيبا، أو أن يقع ضحية الملل أو فريسة للخوف. ويمدنا النشاط الذهني برؤية واسعة عن العالم المحيط، رؤية قوامها الأمن والمتعة. إن الفرد الذي أدخل ضمن عاداته العمل باستقلالية والاعتماد على المراجع يبقى في مأمن من خطر التلاعبات الشائعة، أكانت ابتزازا عاطفيا أو دعاية سياسية، كما يمده ذلك بالثقة ويحصنه من القلق تجاه السيل العارم من المعلومات فهو قادر على هيكلة الأشياء المُشتتة: يحدد جوانبها المعروفة ويقارن الحقائق المتفرقة بنماذجها الأصلية، وعليه تصبح الحياة أكثر أمنا. إن قراءة المقالات والدراسات العلمية تتيح فرصة كبيرة للتقييم الموضوعي لمختلف التحديات التي تواجه الإنسان. كما يجعل الاستيعاب المتواصل للمعلومات العلمية من الإنسان، شخصا أكثر سعادة، حيث تتسع مداركه تجاه الحياة والزمن الذي يعيشه وتنمو أحاسيسه وتفاعلاته مع التقدم التكنولوجي الهائل» (ص ٣٢٨).

تضع المؤلفة نصب عينيها ثلاثة أهداف كبرى: الهدف الأول مناقشة السبب الذي يجعلنا ضحية الغرق في بحر المعلومات المتلاطم وكيفية حدوث ذلك. ويرتكز الهدف الثاني على إحاطة القارئ بالحقائق القارة في العلم وتوضيح ما أثاره بعضها من جدل. ثالث الأهداف ينصب على تقديم الإرشادات لمعالجة آلات البحث في الانترنت وتوفير آلية التعامل مع الفوضى المعلوماتية.

ورد في مقدمة الكتاب تقييم نقدي لخصائص استيعابنا للمعطيات العلمية والطبية. وفيها (المقدمة) تصف الكاتبة طبيعة العوامل النفسية والاجتماعية لدى الأفراد وكيفية عملها في الوعي الجمعي كالتفريق الغريزي بين الخير والشر، وسُلطة المُثُل العليا على أفراد المجتمع، والإحساس الفطري بلحمة الفرد بالجماعة التي ينتمي إليها وبالتالي القبول، أو الرضوخ، لمنطقها، صائبا كان منطقها أو معوجّا وغير ذلك من القوانين الاجتماعية التي كفلت الرابطة المجتمعية وعززت الجانب النفسي لفكرة الجماعة. اليوم، ومع الانفتاح الكبير بين الجماعات والثقافات، تواجه الجماعة بصورتها التقليدية تحديات جمة لا سيما في الجانب المعرفي حيث لم تعد المحذورات مسيّجة ومحروسة كما كان الحال فيما مضى فقد قيض لسيل المعلومات العارم أن يدك أسوار المجتمعات ويعبث بصورتها القديمة.

وهكذا، وبعد أن وضعت المؤلفة توطئتها للكتاب وصممت عتباته، تحيلنا إلى فكرتها الرئيسية التي تتمحور على عالم المعلوماتية والأخبار العلمية المتواترة فيه، لا سيما الطبية منها؛ وما تمخض عن بحثها من كشف لأصول «لعبة» الصحافة العلمية، الورقية والإلكترونية، ووضع آلية للتمييز بين الجواهر والشوائب في بحر المعلومات.

تشير الباحثة إلى الحجم المتضخم للمعلومات العلمية والوتيرة السريعة التي تصدر بها، وذلك إلى جانب بطء البرامج المدرسية لاستيعاب المجرى

المعلوماتي وبالتالي عجزها عن صنع آلية مكتملة لاحتواء التغيرات المتسارعة و «فلترتها». وحسب تقديرها فإن مخرجات التعليم المدرسي متأخرة عن مجريات المعلوماتية بعشرين عاما، الأمر الذي يخل برؤية الطلبة المتخرجين إلى العالم ويحرّف الصورة التي يشكلونها عنه. وفي هذا الإطار تشتكي آسيا كازانتسيفا من النقص الكبير للكتب التي تناقش قضايا العلم الزائف وتفند محتوياته المتراكمة (وهنا توصي المؤلفة بمطالعة كتابين بارزين: «عالم تسكنه الشياطين» لكارل ساغان وكتاب «العلم الزائف وادعاء الخوارق» لجوناثان سي سميث). كما تتهم القنوات التلفزيونية بقلة اهتمامها بالأخبار الطبية والعلمية المبهجة وذلك في مقابل ما تبثه، على مدار الساعة، من أخبار الحروب والكوارث. وتذيل كازانتسيفا صفحة قنوطها بالكسل الذي يمتهنه السواد الأعظم من ساكنة الفضاء المعلوماتي، وتعتبرهم ضحية أنفسهم قبل أن يكونوا ضحية للمعلومات الخاطئة ومن يروّج لها. فعلى سبيل المثال يؤدي التكاسل عن فهم مرض نقص المناعة إلى الاتكال على مضادات غير فعّالة للمرض وتكون النتائج كارثية. فها هي الجنوب إفريقية «نوزيفو بينغو» تقع ضحية ما يمكن تسميته بالتواكل المعلوماتي وتلقى حتفها وهي في الثانية والثلاثين من عمرها. فبعد إصابتها بمرض نقص المناعة، وبعد أن ظلت تداوم على خطة علاجية في السنوات الأولى من المرض، قررت أن تستبدل العلاج الطبي بوصفات شعبية. كانت تتناول الثوم والزنجبيل للقضاء على العدوى، وعصير الليمون والشمندر وغيرهما من المنقوعات الشعبية لإزالة السموم من جسمها. ولم تُقدِم هذه المرأة على قرارها بدافع شخصي ولا بعزيمة فردية أو من منطلق المسؤولية الراسخة، لقد أقدمت على ذلك تحت تأثير الدعاية الرسمية التي أطلقتها الدولة ممثلة بشخص رئيسها. ففي فترة رئاسته التي امتدت بين أعوام ١٩٩٩ و ٢٠٠٨ صرح الرئيس تابو إمبيكي في أكثر من مناسبة عن عجز المصل المضاد لمرض نقص المناعة المكتسبة، وأن نقص المناعة المكتسبة لدى الإنسان لا يؤدي بالضرورة إلى الإصابة بمرض الإيدز. وحسب تقرير أعدته مدرسة هارفرد للصحة العامة، ونشرته مجلة «متلازمة نقص المناعة المكتسبة» في ديسمبر من عام ٢٠٠٨ (ص ٤١٠ – ٤١٥) فقد أدت سياسة تابو إمبيكي إلى حالات وفاة مبكرة لأكثر من ثلث مليون إنسان.

فضلا عن الحالة المذكورة للسيدة الجنوب إفريقية، تناثرت في جنبات الكتاب الكثير من الحالات والمسائل الاجتماعية والطبية التي تكرس

لها الكاتبة اهتماما بالغا وتضعها في صميم عملها، ليس لأنها ناتجة عن خلل وقصور في معالجة المعلومات وحسب، ولكن – أيضا – لأهمية هذه الظاهرة والخطورة الكامنة وراء انتشارها واتساع رقعتها بين مستهلكي المعلومات. ومن بين المعتقدات الخاطئة التي توردها الباحثة الروسية وتتأملها تحت مجهرها النقدي والتحليلي الدقيق نذكر الآتي (ونترجم هنا العناوين كما وردت في الكتاب مع إيضاح للمقاصد التي يحملها العنوان): ليس للعلاج المثلي آثار جانبية (والعلاج المثلي تقليد طبي يؤرخ للفراعنة ومازال معمولا به؛ مفاده أن الدواء من طبيعة الداء، كأن نداوي لدغات العقارب بسمها، والكاتبة هنا تستبعد أن يكون للعلاج المثلي آثارا جانبية، حيث لا وجود لعناصر مكملة في أدويته). التطعيم مسبب لمرض التوحد (مع خلو البرهان العلمي لهذه المقولة فستظل ضربا من التخرصات حتى وإن تكاثر المؤمنون بها). لا يؤدي نقص المناعة المكتسبة إلى الإصابة بمرض الإيدز (نعم، ولكن فقط في حالة الالتزام بالخطة العلاجية الطبية). الوخز بالإبر طريقة موثوقة للعلاج (بعض العلاج كتسكين الآلام والشفاء من الغثيان وليس العلاج بالمطلق). حان الوقت لإلغاء التجارب على الحيوانات (نعم، ولكن فقط إذا انتفت حاجتنا لاختراع تقنيات علاجية جديدة وتطوير الأدوية). اللحم مضر بالصحة (إنه مضر عند تناول السجق والنقانق). يجب أن نأكل طبيعيا (ليس كل شيء). الرجل أذكى من المرأة (البعض منهم أذكى.. بكل تأكيد). إن كنت ملحدا حق لك أن تفعل ما تريد (ربما من المتعين علينا أن نضع السبب مكان النتيجة!).

يبرز في أسلوب المؤلفة مقدرتها على تبسيط المسائل العلمية المعقدة من غير المساس بأصولها الصارمة. ميزة أخرى توفرت في هذا الكتاب وهي حرية التنقل بين فصوله، فبإمكان القارئ أن يبدأ من حيث أراد، وأن يتعمق في فهم مسألة من المسائل بمعزل عن بقية الصفحات. وانطلاقا من خبرتها في مجال الصحافة العلمية، أهملت آسيا كازانتسيفا عن سابق قصد الصيغ الكيميائية والرياضية في بعض المسائل العلمية، فبرأيها ستبدو للقارئ معقدة وباعثة للملل علاوة على أنها ليست بذي جدوى للعلماء والمتخصصين. كما حرصت الكاتبة على التعريف بنتائج البحوث العلمية الحديثة (لا سيما الطبية منها) والحاصلة على إجماع المجتمع العلمي. ويعزز الكتاب من قناعة القارئ في الاعتماد على الدراسات العلمية كمصدر موثوق به للمعلومات التي ما كفت تزيد من وتيرتها وتملأ الفضاء بضجيجها. ولا تتوانى الكاتبة عن طمأنة قارئها على نجاعة المختبرات العلمية في التوصل إلى أضمن النتائج وأوفرها حظا للنجاح.

في خاتمة الكتاب المعنونة بـ «مرشد موجز للبحث عن الحقيقة» توافينا الكاتبة بتوصيات للطرق المثلى للحصول على المعلومة الصحيحة في الإنترنت، وما هي الإشارات التي تدل على المقالات الجادة، وكيف نفرق بين التجارب العلمية والزائفة. وتؤكد المؤلفة على إمكانية التحلي بعقلية نقدية لكل فرد يستخدم الانترنت وليس فقط للمختصين، أمّا المفتاح إلى تحقيق ذلك فيكمن في التعود على النهج التحليلي لقراءة المعلومة والوعي العميق بأن الانترنت سوق بلا أبواب ولا حرّاس، وهو أرض مشاع يرتادها العالم والمدعي والمشعوذ. ولكل منهم وشمه الظاهر والمتخفي. ولعل أفضل تقييم لكتاب آسيا كازانتسيفا ما جاء في كلمة رئيس لجنة محاربة العلم الزائف بأكاديمية العلوم الروسية يفغيني ألكسندروف: «إنه كتاب جريء. لم تتردد الكاتبة في الانضمام إلى الحرب على الخرافات التي تأصلت في وعي المجتمع. وقد عززت خلفية الكاتبة العلمية من صدقية محتوى الكتاب حتى لتشعر أن خلف كل جملة ثمة دراسة جادة. عدا ذلك، يُقرأ الكتاب كسلسلة أحداث مثيرة وشيقة، ساحرة ونقية».

الكتاب: ثمة مخطئون في الإنترنت، دراسات علمية في مسائل جدلية
المؤلف: آسيا كازانتسيفا
دار النشر: أ.س. موسكو ٢٠١٦
اللغة: الروسية
عدد الصفحات: ٣٧٦

* أكاديمية ومستعربة روسية

«من الإمبراطورية إلى الجمهورية: نظرات في ألمانيا القديمة وألمانيا الحديثة».. لديريك روختوس

عبد الرحمن السليمان *

لا يزال الدور الذي تؤديه ألمانيا داخل أوروبا والاتحاد الأوروبي دورًا محوريًّا، يؤثر تأثيرًا مباشرًا على وضع السياسات في أوروبا عمومًا، والاتحاد الأوروبي خصوصًا. ولا تنفك دوائر تحليل السياسيات وخطاباتها تتابع عن كثب التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ألمانيا، خصوصًا تلك المتعلقة باستيعاب عدد كبير من اللاجئين. ولا تزال الكتب والدراسات التي تحاول استيعاب السياسة الألمانية، وسبر أغوارها، وتفسيرما استغلق منها، تصدر تباعًا. ومن هذه الكتب: «من الإمبراطورية إلى الجمهورية: نظرات في ألمانيا القديمة وألمانيا الحديثة»، لكاتبه الأستاذ الدكتور ديريك روختوس أستاذ العلاقات الدولية المتخصص في الشأن الألماني في جامعة لوفان في بلجيكا. يُعالج الكاتب في هذا الكتاب عددًا من المسائل السياسية والثقافية والاجتماعية الرئيسية في ألمانيا، والتي يتجاوز تأثيرها حدود ألمانيا ليشمل سائر دول الاتحاد الأوروبي، ويوظف في تحليله لتلك المسائل مقاربة يقارن فيها بين ألمانيا الإمبراطورية وألمانيا الجمهورية من جهة، ويخرج تلك المسائل المعالجة من سياقها الألماني ويضعها في سياق أوروبي أوسع من جهة أخرى.

ينطلقُ الكاتب من توصيفه للإعجاب الذي ميَّز نظرة العالم إلى «الرايخ» أو الإمبرطورية الألمانية إبان نشأتها في القرن الثامن عشر. يقول: «تعتبر القوة السياسية والاقتصادية التي ظهرت على الساحة ابتداء من سنة ١٨٩٧ الأساس الذي بنيت عليه إمبرطورية ألمانية أعجب العالم بها وبفلسفتها وآدابها وعلومها وتكنولوجيتها المتطورة». إلى جانب هذا الإعجاب، أثار ظهور «الرايخ» أو الإمبرطورية الألمانية أيضًا شعورًا بالخوف والقلق في سائر دول أوروبا وممالكها آنذاك. لقد غيَّرت «الرايخ» معادلة القوى في القارة الأوروبية التي كانت تسيطر على العالم آنذاك؛ ذلك أنَّ القيصر ڤيلهلم الثاني (١٨٥٩-١٩٤١) -وهو القيصر الألماني الذي زار القدس سنة ١٨٨٩م تلبية لدعوة من السلطان العثماني عبدالحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨)، وزار ضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق وأهدى الضريح نعشًا من الرخام تقديرًا للملك الناصر- قد سعى في جعل ألمانيا قوة عالمية كبرى. «لقد كان هذا السعي لتحويل ألمانيا إلى قوة عظمى»، كما يذكر الكاتب، «من جملة الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى». ويرى أن ألمانيا دخلت في الحرب العالمية الأولى «من أجل تطوير حضارة عميقة بدلاً من الحضارة الفرنسية السطحية»، وكذلك «من أجل تحقيق حرية حقيقية بدلاً من الليبرالية ومن سائر الديمقراطيات الفارغة التي حققتها الدول الأوروبية الأخرى القوية وعلى الأخص ديمقراطية بريطانيا العظمى».

نشأت الجمهورية الألمانية بعدما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها سنة ١٩١٨. لقد كانت الجمهورية الألمانية -أو «جمهورية وايمار» كما كان أعداؤها من محافظين وشيوعيين ونازيين يسمونها نسبة إلى مدينة وايمار التي كُتب دستور الجمهورية الألمانية فيها -«ديمقراطية بدون ديمقراطيين» كما يتهمها أعداؤها. انتهت حقبة هذه الجمهورية سنة ١٩٣٣ وقتما أصبح أدولف هتلر مستشارًا لألمانيا، وسقطت هذه الجمهورية «نتيجة للكراهية» كما يرى الكاتب: «كما أدت حروب هتلر التوسعية واضطهاده لليهود إلى القضاء على فكرة (الرايخ)» التي أطلقها النازيون بعد سقوط الجمهورية الألمانية، وحلّت محل ذلك كله ألمانيا الاتحادية التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد سنة ١٩٤٩.

واليوم، بعدما فتحت ألمانيا المستشارة أنجلينا ميركل أبوابها لاستقبال أكثر من مليون لاجئ في مبادرة فاجأت أوروبا والغرب والعالم بـ«كرمها»، تتغير ألمانيا جذريًا، على مستوى الأحزاب السياسية وعلى المستوى الديموغرافي. ويرصد الكاتب في كتابه أن «تلون» ألمانيا وتنوعها الديموغرافي يصطدمان بمقاومة من ألمان يحنون إلى زمان (الرايخ) وفكرة الوطن المؤسس على القومية الألمانية. ولكن الواقع يشير إلى أن ألمانيا أصبحت واحدة من أكثر الديمقراطيات ثباتًا واستقرارًا في العالم. «فمن جهة يرى معظم الألمان أن فكرة الوطن المؤسسة على القومية عنصرية لأنها تسببت في نشوء النازية؛ ومن جهة أخرى يرون أن من حقهم أن يراهم العالم بصورة إيجابية» بعدما رآهم بصورة سلبية في الحرب العالمية الثانية. من ثمة نزعتهم «لتحسين العالم» والتعامل بإيجابية كبيرة مع أزمات العالم الكبيرة ومنها أزمة اللاجئين. وفي بحثه الدؤوب عن تفسير لإشكالية النزوع نحو القومية، يرى الكاتب أن الحل الوحيد يكمن في استكمال الاندماج في الاتحاد الأوروبي، وتعميقه. فكلما اندمجت ألمانيا في أوروبا أكثر، كلما تقلصت فكرة الدولة الوطنية القومية. إذن، لا يكمن الحل في «أوروبا ألمانية» كما يرى القوميون الألمان الجدد، بل في «ألمانيا أوروبية» كما كان أول مستشار لألمانيا الاتحادية كونراد أديناور (١٨٧٦-١٩٦٧) يرى في اندماج ألمانيا الاتحادية التي نشأت عقب الحرب العالمية الثانية في المجموعة الأوروبية. كان هذا الاندماج يسمى (Westbindung) ويعني في حقيقة الأمر -وكما كان يفهم منه في حينه- «دمج ألمانيا الخطرة في المجموعة الأوروبية، وتغليفها جيدا درءًا لخطرها»، كما ينص الكاتب. ويراد من هذه العملية، في نهاية المطاف، دمج ألمانيا في كيان أوروبي أكبر يتجاوز حدود الوطن المكانية والزمانية إلى ما هو أكبر منه-الاتحاد الأوروبي.

ويتوقَّف الكاتب البلجيكي في محطة مهمة من محطات الكتاب، ليقارن بين جمهورية ألمانيا الاتحادية ومملكة بلجيكا الفيدرالية. «لقد كانت «الرايخ» أو الإمبرطورية الألمانية تتكون من خمس وعشرين ولاية أو مقاطعة. اثنتان وعشرون من هذه الولايات كانت ملكية، وثلاث منها جمهورية». أمَّا اليوم، فتتكون ألمانيا الاتحادية من ست عشرة ولاية تتحد مع بعضها لتكون معا ألمانيا الاتحادية. وهذه المقارنة ليست عرضية، لأن مملكة بلجيكا تتكون من ثلاث مقاطعات هي مقاطعة والونيا الناطقة بالفرنسية (ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة)، ومقاطعة الفلمنك الناطقة بالهولندية (سبعة ملايين نسمة ونيف) ومقاطعة أوبن الصغيرة الناطقة بالألمانية (تسعة عشر ألف نسمة). ويختلف البلجيكيون في نظرتهم إلى النظام الملكي في بلجيكا، ففي حين يفضل معظم الوالونيين الناطقين بالفرنسية النظام الملكي

ويعتبرون ملك بلجيكا رمزًا لوحدة البلد، يفضل الفلمنكيون الناطقون بالهولندية النظام الجمهوري، ويطالب القوميون منهم بإلغاء الملكية كليًا. ويرى الكاتب الذي ينتمي إلى الحزب القومي الفلمنكي أن الفيدرالية الألمانية التي تضم ولايات لبعضها نظام ملكي ولبعضها الآخر نظام جمهوري أنموذج صالح لبلجيكا، ويوحي بمقارنته هذه بأن مقاطعة والونيا قد تتحول إلى مملكة وأن مقاطعة الفلمنك قد تصبح جمهورية وأن المقاطعتين، إضافة إلى مقاطعة أوبن الصغيرة تكون معًا مملكة بلجيكا، وتصبح وظيفة الملك البلجيكي في مملكة اتحادية كهذه رمزية تقتصر على المراسيم والأعياد. وهذا -أي تجريد ملك بلجيكا من صلاحياته الواسعة- مطلب قديم من مطالب القوميين الفلمنكيين الذين يرون في صلاحيات الملك الدستورية وفي نفوذه السياسي عقبة في سبيل تحول مقاطعتهم إلى جمهورية. وعليه، فإنَّ الكاتب يقترح بمقارنته هذه تحويل مقاطعة الفلمنك إلى جمهورية داخل مملكة بلجيكا، والإبقاء على ملكها رمزًا لوحدة البلد ولكن بدون سلطات فعلية -كما هي الحال عليه في ألمانيا القوية والمزدهرة؛ حيث تقتصر صلاحيات الرئيس فيها على المراسيم والمناسبات الوطنية.

ثم يتطرَّق الكتاب إلى قضية المهاجرين واللاجئين التي طالما أصبحت تأخذ حيزًا كبيرًا من اهتمام المحللين والمراقبين والسياسيين والمواطنين على السواء، ويذكِّر القراء بأن «ألمانيا الاتحادية بُنِيَت بعد الحرب العالمية الثانية بعرق ملايين اللاجئين والمطرودين من المناطق الألمانية التي خسرتها ألمانيا في الحرب العالمية الثانية»، وكذلك -وابتداء من الستينيات من القرن الماضي- «بعرق ملايين العمال الأجانب خصوصا الأتراك منهم». لقد أدى مجيء مهاجرين من خارج أوروبا إلى ألمانيا إلى نشوء مجتمعات متعددة الثقافات. ويرى الكاتب أنه في بعض الأحيان يستحيل تعدد الثقافات هذا إلى نشوء مجتمعات متوازية تعيش إلى جانب بعضها بعض بدلاً من أن تعيش مع بعضها بعض. وفي الحقيقة، يَرَى الكاتب ومعه جميع المراقبين أنَّ نظرة الألمانيين إلى هذه الظاهرة تتمحور اليوم خلف وجهتي نظر اثنتين واحدة تقدمية تتسامح مع ظاهرة التكتلات الثقافية داخل المجتمع، وأخرى محافظة تنتقد هذه الظاهرة على الدوام. وعلى الرَّغم من غالبية الألمان يفهمون عبارة المستشارة الألمانية أنجلينا ميركل (wir schaffen das)، التي أطلقتها في بداية استقبال ألمانيا للاجئين، على أنها تعني «بمقدورنا استيعاب اللاجئين ودمجهم في المجتمع الألماني»، فإنَّ ثمة أقلية ألمانية تفهمها كالتالي (wir schaffen Deutschland ab) «نلغي ألمانيا». وهذه العبارة الأخيرة إشارة إلى عنوان كتاب لأحد محافظي بلديات برلين الذي صدر مؤخرًا بعنوان (Deutschland schafft sich ab) «ألمانيا تلغي نفسها» أي تفكك وتدمر نفسها. ويَرَى الكاتب أنَّ تيارًا ألمانيا قوميا يحن إلى زمن «الرايخ» يتساءل: كيف ستغير ثقافة

الترحيب باللاجئين هذه وجه ألمانيا ووجه أوروبا معها، خصوصًا بعدما تركت أوروبا زمام المبادرة لألمانيا فيما يتعلق بقضية اللاجئين؟ ويَرَى الكاتب أيضًا أنَّ أنجلينا ميركل -التي منحتها أهم جامعتين بلجيكيتين؛ هما: جامعة لوفان وجامعة غاند الدكتوراه الفخرية، بتاريخ ١٢ يناير ٢٠١٧، تقديراً لجهودها الكبيرة في تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي في أوروبا، وكذلك عن موقفها من أزمة اللاجئين- تواجه في ألمانيا انتقادًا من المحافظين الذين يرون في هجرة أعداد كبيرة من المسلمين إلى ألمانيا تهديدًا للهوية الألمانية التي يدعون إلى الحفاظ عليها ودمج ألمانيا في أوروبا مسيحية.

وقد تكون أزمة اللاجئين، كما يراها الكثيرون، موجة من موجات حركة الرحيل البشري الكبير الذي بدأ في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، والذي كان يرى في القارة الأمريكية وجهة نهائية له. يتوقع الكاتب أن هذا التنقل البشري الكبير سيدوم قرنًا من الزمان على الأقل. وعليه فإن الحديث عن التنوع الإثني والثقافي داخل المجتمعات الأوروبية سيطول وسيطرح فكرة الدولة المؤسسة على أسس قومية من جديد. وهذا الطرح مرتبط بطرح آخر هو مستقبل الاتحاد الأوروبي. ففي حين يرى الكاتب أن الاتحاد الأوروبي مؤسس على أقاليم أوروبية، نشهد اليوم نشوء دول قومية داخل الاتحاد الأوروبي تقف بمواجهة الأقاليم. في هذا السياق يرى الكاتب أن أوروبا ذات الأقاليم -إن صح التعبير- لم تعد حلًا مناسبًا لتحديات اليوم، فهو يؤمن بأوروبا ذات دول وطنية قومية قوية. وبإسقاط هذا الكلام على ألمانيا التي تؤدي دورًا أساسيًا في الاتحاد الأوروبي، يستخلص الكاتب أن ألمانيا القومية ذات الهوية الواحدة أفضل من ألمانيا الاتحادية ذات الأقاليم المختلفة، وأفيد منها للقارة العجوز.

الدولة القومية بديلاً عن الدول الاتحادية؟

للإجابة عن هذا السؤال يُستحضر أن النظرية القومية تتأسس على واحد من ثلاثة أسس؛ هي: ١-العرق (كالقومية الألمانية النازية ونظام الفصل العنصري السابق في جنوب إفريقيا). ٢- اللغة والثقافة (كالقومية العربية والقومية التركية والقومية الفلمنكية في بلجيكا). ٣- الدين (كالقومية الإيرلندية المؤسسة على الديانة المسيحية الكاثوليكية، والقومية الصربية المؤسسة على الديانة المسيحية الأرثوذكسية). وتنفرد الصهيونية بصفتها حركة قومية مؤسسة على العرق اليهودي -مهما كان تعريفه- والدين (الديانة اليهودية) معًا. وغني عن القول أنَّ القومية المؤسسة على اللغة والثقافة تتيح مجالاً واسعا لاندماج مجموعات كثيرة من المهاجرين واللاجئين في المجتمع الألماني ومن ورائه المجتمعات الأوروبية. كما تتيح المظلة الأوروبية -وهذا هو الأهم بالنسبة للكثيرين من الأوروبيين- مجالاً واسعًا للغات المجموعات والشعوب الأوروبية الصغيرة (كالأقلية الكتالانية والباسكية والشعب الإسكوتلندي وغيره)، وثقافاتها المحلية كي تحتفظ بتلك اللغات وتلك الثقافات وتطورها، فتندمج في المجموعة الأوروبية بالاحتفاظ بهويتها الوطنية بدلاً من انصهارها كليًا في البوتقة الأوروبية كما يرى الكاتب. وهذا هو رهان الغالبية العظمى من المواطنين الألمان، ومن ورائهم مواطني غرب أوروبا، لأن أوروبا ليست بمعزل عما يجري في ألمانيا. وهذا أيضًا رهان القوميين الذين يؤسسون قوميتهم على اللغة والثقافة خصوصًا إذا كان يقف اقتصاد قوي خلف لغة ما وثقافتها، مهما كان عدد المتحدثين بها قليلاً. فهذه اللغة الهولندية التي يتحدث بها ثلاثة وعشرون مليون شخص (منهم سبعة ملايين ونيف في بلجيكا)، والباقي في هولندا وبعض مستعمراتها السابقة، حاضرة بقوة في المحتوى الرقمي، وتسبق العربية في المحتوى الرقمي بأشواط كثيرة؛ لأنَّ وراءها اقتصادًا قويًا يدعم حضورها وانتشارها خارج الحدود عبر المحتوى الرقمي؛ فالثقافة لا تعرف الحدود السياسية التي تفصل الأقاليم والدول عن بعضها، وتتجاوزها لتتفاعل مع ما يوجد خلف الحدود المكانية أو الحدود الافتراضية. وهذا رهان ألمانيا أيضًا حسب الكتاب.

- الكتاب: «من الإمبراطورية إلى الجمهورية: نظرات في ألمانيا القديمة وألمانيا الحديثة».
- المؤلف: ديريك روختوس.
- الناشر: منشورات دوربراك، بلجيكا، ٢٠١٦م، باللغة الهولندية.
- عدد الصفحات: ٢٠٨ صفحات.

* أستاذ الترجمة بجامعة لوفان، ورئيس المجموعة البحثية «تكنولوجيا الترجمة» - بلجيكا

«السعادة».. لبوب نيون

محمود عبد الغفار *

غُلاف الكتاب يحمل بالفنط الصغير الأسود سطرًا هو «الراهب بوب نيون»، متبوعًا بعلامة الملكية أو النسبة التي تنسب كلمة «السعادة» بالفنط الأبيض الكبير إلى الراهب بوب نيون. حرفيًّا؛ السعادة عند الراهب بوب نيون. وتحت هذا العنوان صورة مرسومة لقدمين، وبعض وجه ويد يمنى، وسط ورود على هيئة قلب وتحتها ثلاثة أسطر، بالأسود؛ السطر الأول يقول: معلمي! من أَيْن تأتي السعادة المنقادة؟ ثم في السطرين باللون الأحمر: ما طبيعة الحياة التي تعيشها؟ فلكل إنسان الحق في أن يعيش سعيدًا. لكن لا تضع سعادتك على حساب سعادة الآخرين. الغلاف باختصار كاشف بوضوح عن طبيعة الكتاب، وهوية مُؤلفه بشكل يغني عن الكثير جدًّا من الوصف.

مقدمة الكتاب تتناول تطوافًا مُهمًّا بأسلوب مُمتع وبسيط، في الوقت نفسه، حول مفهوم «السعادة»، ولكنها تعرف أولاً بهوية الكاتب، فلربما يتساءل أحد القراء -وهذا حقه المشروع- مَن هذا الذي يحدثنا عن السعادة؟ ألديه من المؤهلات والخبرات ما يجعله قادرًا على الحديث إلينا حول قيمة نبحث عنها جميعًا؟ ثم بأي أسلوب يحدثنا؛ العارف المتعالم المُلم بكل شيء، أم الحكيم المتواضع الذي يمرر خبراته بمحبة لغيره؟ أيبدو عليه أنه سعيد ومتصالح مع نفسه على النحو الذي تعكسه عباراته في محاضراته وكتبه؟.. أسئلة كثيرة قد تتبادر إلى ذهن القارئ يُجاب عنها بدءًا من المقدمة، ولعل غلاف الكتاب نفسه قد أجاب عنها ولو نسبيًّا.

تنقَّل «بوب نيون» إلى بقاع بلاده ليلقي المحاضرات، ويتحدَّث إلى الناس لما يقرب من ثلاثين عامًا. كانوا يسألونه عادة عن كيفية القيام بالعمل على النحو الذي يحقق النجاح ويؤدي لرغد العيش، وعن كيفية اختيار شركاء الحياة عند الإقبال على الزواج، وكيفية تربية الأطفال، وكيفية التغلب على مشكلات الحياة في العمل والمنزل والمجتمع المحيط بشكل عام. يقول المؤلف: صحيح أنَّ الأسئلة متنوعة ومختلفة، لكنها تصب في مجرى واحد وهو: «كيف نكون سعداء؟»؛ لذا فقد اختار بعناية أهم تلك الأسئلة ليجيب عنها خلال هذه الصفحات، راسمًا صورة أو لنقل «دليلاً إرشاديًّا» لما نطلق عليه «السعادة».

المؤلف «بوب نيون» ناشط اجتماعي وراهب بوذي يسعى لتثقيف الناس على المستوى العقائدي، ويناضل لأجل حقوق المرأة، بل وحقوق الإنسان بشكل عام، كما يَدْعَم الجهود الكورية والعالمية في سياق القضاء على الأوبئة وانتشار الأمراض. مُستفيدًا من خبرات خاصة لسنوات طويلة اكتسبها، بل ومارسها، من التعاليم البوذية المنضبطة، والتي انعكست بشكل واضح على أسلوبه في تدريب الناس للسيطرة على ذواتهم والتغلب ما يواجهونه من صعوبات، والعمل على تصفية أذهانهم وتنقية أرواحهم من أدران الصراعات المادية والحسية. بدأ «بوب» هذا المشروع الفكري منذ ١٩٨٨م مستفيدًا من التعاليم البوذية في اتجاهين: اتجاه العقيدة نفسها؛ حيث علاقة الفرد الذاتية بما يؤمن به ويمارسه تجاه نفسه بشكل خاص. واتجاه الحراك الاجتماعي في إطار علاقة ذلك الفرد بغيره مما يشاركهم العيش في المكان والزمان. وهو ينتمي إلى اتجاه في الفكر البوذي يجمع بين العقيدة والاندماج في المجتمع لخدمته. فالبوذية عند هذا الاتجاه ليست رهبنة وانعزالاً عن المجتمع كما كان في الماضي؛ حيث كانت المعابد تبنى في قمم الجبال بعيدًا عن الناس. وبالتالي فالتعاليم والصلوات في هذا الاتجاه تهدف لإدماج الفرد الصالح في المجتمع. هذا الاتجاه الإصلاحي معني مثلاً بتحقيق الوحدة بين شطري كوريا شمالاً وجنوبًا، كما أن أعضاءه يقومون بأنشطة دولية في مجال المساعدات الإنسانية للعديد من بلدان العالم. ولهم منظمة في كوريا الجنوبية تقوم على عدة أسس أو مبادئ؛ هي: الأنشطة الدولية الفعالة، والأصدقاء الطيبون، وأصداء بوذا. وتعرف اختصارًا بمنظمة «جي.تي.إس». وقد فاز المؤلف بجائزة «رامون ما جسايساس» عام ٢٠٠٢م، والتي تعدُّ من أرفع الجوائز التكريمية في آسيا في إطار الارتقاء بالروح وتنمية مهارات الفرد للضبط والتأقلم والقيادة ونكران الذات وبذل الجهد لإيجاد حلول للتغلب على المشاكل المجتمعية والإنسانية بشكل عام.

الكتاب في هذا السياق واحد من سلسلة كُتب تتعلق بكيفية ترويض النفس والتغلب على المشكلات والصراعات الاجتماعية في العالم المعاصر الذي تلتهم قيمه المادية بشراسة إنسانية الإنسان. يبدأ المؤلف بالحديث عن «مصدر» السعادة، من أين تنبع وكيف يمكن استثمار وجودها؟ السعادة تنبثق باختصار من النقطة التي عندها يتم الارتقاء بالبصيرة، بحيث يستطيع المرء أنْ يرى الأشياء من منظور أكثر عمقًا. فإذا أردت أنْ تكونَ سعيدًا عليك أنْ تعرف أولاً لماذا تحسّ بالتعاسة. هذا أول الخيط الذي يرشدك لموضع السعادة، وهذا بالضبط ما يحاول الكتاب عمله عبر نقاط محددة وعناوين فرعية كثيرة يتم شرح كل منها بغاية السلاسة والهدوء مع ضرب الأمثلة من مصادر ثقافية ومعرفية متنوعة تثري أسلوب الكتاب وتزيد من متعة قراءته.

الخطورة المتعلقة بإحساس الفرد بالخواء وتناقص الإنسانية في عالمنا المادي المعاصر -كما يقول المؤلف- ليست أنك أمام مشكلة فردية، بل أمام مشكلة مجتمعية وعالمية؛ لأنَّ المجتمعات التي يتشكل منها العالم في النهاية هي مجرد أفراد. ثم يضيف قائلاً إنه ربما عبر رحلته الطويلة في التحدث إلى الناس قد أجاب عن الكثير من الأسئلة، ولكنه لا يزال يرى أن الطريق طويل. أول ما يبدأ به دليله الإرشادي للسعادة بعد أن حدد مصدرها هو أهمية النظر إلى الأمور من منظور مختلف يتجاوز أحادية الرؤية؛ فيقول: بالنسبة لمن ينظرون للأمام فحسب، ماذا عن الخلف؟ ولمن ينظرون إلى الخلف فحسب، ماذا عن الأمام؟ ومن ينظرون إلى السطح فقط، ماذا عن العمق؟ ولذا فإن تخليت -ولو مؤقتًا- عن اليقينية والموثوقية فيما تعرفه عن الأشياء، ربما قد تراها من منظور جديد يساعدك في التغلب على ما تسببه لك من مشكلات. وبالتالي؛ فعندما تكتسب الحكمة لترى الأشياء من كل الزوايا، سيكون باستطاعتك أنْ تدركَ أنّ معاناتك في طريقها إلى الزوال. لأنَّ الأمرَ أشبه تمامًا بغرفة مظلمة، لو تأملتها كلها جيدًا لوجدت مفتاح الإضاءة بمكان ما، وحالما ضغطته انقشع الظلام تمامًا. هذا الأمر متعلق أيضًا بالإحساس بالسعادة -الذي حسبما يعتقد المؤلف- مرتبط برؤية الأشياء من كل الجوانب الممكنة. ويتعلق به أيضًا تجاوز السور أو السياج المسمى «أنا»؛ لأجل تدريب الذات على توسيع مدى الرُّؤيا وأبعادها لتشمل الاتجاهات كلها. فالبقاء داخل سياج الأنا يجعل المرء متعصبًا لذاته ولرأيه الواحد. صحيح أنَّ سعادة الفرد ملك له وحده، وتحقيقها مرهون بيده وحده، لكن ذلك لا يتأتى ولا يتحقق أبدًا مع انعزال ذلك الفرد وراء ذاتيته فحسب.

وفي الفصل الأول بعنوان «لماذا لا تسير حياتي على النحو الذي آمله؟»، يتناول عددًا من النقاط؛ أهمها: الاختيار وتناقض الذات. على سبيل المثال؛ لو أنّ راهبًا استأجر راعي أغنام لكي يرعى غنمه هو دون مشاركة ووعي بما يجري هناك، سوف يخسر هدفه أو أهدافه لفرط قناعته الشخصية التامة أنه أسند الأمر إلى أهله، وبالتالي صار واثقًا من أن الأمور كلها في أمان تام! لقد تخلّى عن واجباته ولهذا خسر تدريجيًّا معنى الحياة. صحيح أن الثقة والقناعات مهمان جدًّا للمرء، ولكن يجب توظيفهما في المكان والزمان المناسبين باستمرار. فعلى المرء أن يتأمل ذاته وأن يتساءل حول الأشياء الجيدة التي يعتقد الآخرون أنها جيدة بالنسبة لهم ومن منظورهم الخاص. لأن اكتشاف جودة هذه الأشياء من عدمه مرهون بعودة المرء إلى مكانه هو الخاص، لا بوقوفه في المكان الذي يقف فيه الآخرون.

لو تساءلت عن الواقع والخيال أو الحقيقة والمثال! يقول المؤلف لو تأمل الفرد ذاته وعمله وشعوره لأمكنه أنْ يجد ما يحبه ويعرف ما الذي يريده. أما بشأن المثال والواقع، فعلينا التخلي عن فكرة أنهما نقيضان. فالرغبة في القيام بشيء (مثال أو خيال) تتحول إلى (واقع أو حقيقة) عندما تدخل نطاق التنفيذ. ومن ثمّ تخيل وخطط ثم ضع قدمًا تلو الأخرى على أرض الواقعية وواصل المسير. في هذا السياق أيضًا على المرء أن يستعد للمستقبل بالعمل وحسن التدبير، لا أنْ يجلس في انتظاره دون حراك على اعتبار أنه آت لا محالة. ومن ثم -يوجه حديثه للقارئ- ادرسْ وابحثْ وواجه التحدّيات، فهذه كلها خطوات نحو الانتقال الفعلي للمستقبل.

على المرء أيضًا أن يخرج من سجن الوعي الزائف أو الخطأ عن نفسه وعن الوجود من حوله، وأن يهتم بالتفاصيل الصغيرة، فالحياة والوجود ليست أشياء عظيمة فحسب، بل ليست لها أية معانٍ خاصة. فالوجود هو الوجود فحسب، فلا تنتقص منه ولا تمنحه ما يزيده. وهو باختصار مثل وجود الأشجار والأعشاب وغيرها من عناصر الطبيعة. وفيما يتعلق بسرِّ السعادة؛ فمن الأسرار الواجب التعرف عليها بشأن النجاح، أحدَ المدخلات المهمة للإحساس بالسعادة، أن الأشياء لا تنجح بذاتها، بل عندما توضع في السياق الملائم الذي تتناغم داخله مع بقية العناصر الموجودة فيه. هذا إلى جانب الحفاظ على إيقاع الحركة باستمرار، فالأشياء المحيطة والظروف والعوامل في

تغير مستمر؛ وبالتالي لو بقيت ثابتًا وأصررت على ذلك بعناد ستشعر بصعوبة بالغة. فعندما تتخلص من هواجسك اعلم أن معاناتك سترحل أيضًا. ثم يمضي الفصل عبر عرض عدد من النقاط في جمل بسيطة ومعبرة وشديدة الأهمية في الوقت نفسه. إنها أشبه بحكم أو نصائح صادرة عن خلاصة تجربة عميقة بالفعل: تخلص من الجشع واطلب ما تحتاجه فحسب. فالذين لديهم قوة الاكتفاء بطلب ما يحتاجون إليه فحسب، لن يتمتعوا بالإحساس بالقناعة فحسب، بل لن يعانوا من خيبة الأمل في الإحساس بالفشل، لأنهم حتى لو فشلوا سيعاودون الكرَّة وسيجدون طريقًا آخر لتحقيق هدفهم بالحصول على حاجاتهم؛ مما يؤكد بالفعل أنهم يمتلكون تلك القوة التي أشرنا إليها من قبل. صفِّ عقلك؛ بمعنى استخدم قدراتك وقوتك في السيطرة عليه وتغييره، وتخلص من الكراهية وابتعد عن الصراعات، واعلم أنّ الطمع سلوك متناقض.

لكل شيء يحدث أسباب وراء حدوثه، وموقف أو سياق يحيط بذلك الذي يحدث ويلعب دورًا في إتمام حدوثه من عدمه، ويترتب على ذلك نتائج تعقبها مكافآت التحقق أو قد يتبعها العقاب. وليس حتمًا أن تتحقق النتائج وتأتي المكافآت فورًا ومباشرةً عقب وقوع الأفعال. فعلى سبيل المثال قد يخطئ البعض -هذا حدث له أسبابه وسياقه أيضًا- ثم تتأخر النتائج ويقع العقاب لاحقًا، بل قد يقع بعد زوالنا نحن. الأمر نفسه ينطبق على الأشياء الجيدة. لذا؛ فعندما تفعل شيئًا لا تنتظر النتائج مباشرة، بل لا تفعلها من أجل النتائج والمكافآت، افعلها لأنك تحب أن تفعلها وتريد أن تفعلها فحسب. لا تعتقد أن قيامك بالأفعال الجيدة فيه تفضُّل منك. بل عليك أن تفكر في أن تلك الأشياء الجيدة قد تكون تسديدًا لديون قديمة متعلقة بأخطاء وقعتَ فيها بقصد أو حتى دون أن تعرف بها أصلاً.

وفي الفصل الثاني بعنوان «العاطفة عادة مصنوعة»، يتناول عدة نقاط بالغة الحساسية والأهمية وبصياغات أقرب للغة الشعر، فيرى أن «الألم محتوم، لكن المعاناة اختيار». وفي هذا السياق من المحبذ أن يحرر المرء نفسه من المشاعر جيدها ورديئها كي يحتفظ بصفاء عقله ويعرف ماذا سيختار وما يترتب على اختياره من عواقب. كما يرى أيضًا أنّ الغضب ليس شيئًا يأتينا من الآخرين، بل شيء قابع في رؤوسنا وعلينا أن نتعلم كيف نتعرف عليه وكيف نجد موضعه تمامًا مثلما نحاول أن نفعل مع «السعادة». الفكرة هنا باختصار أن كل المشاعر يتم تصنيعها في رؤوسنا وبإرادة منا؛ لذلك علينا أنْ نتعلم كيف تتم عملية التصنيع تلك، ومتى يمكن إيقافها أو ضبطها. وعلينا أنْ لا ننسى دائمًا وضع الأحداث في إطار العناصر الأربعة الأخرى المصاحبة لها، والتي تمَّ ذكرها من قبل: الأسباب، والسياق، والنتائج، والمكافآت أو العقاب. فعند الغضب مثلاً، ربما لو تأملنا السياق جيدًا توقفنا عن فورة الرغبة في القيام بأفعال شريرة؛ لأننا سنكون قد وصلنا إلى مكانه وتعرفنا على وقت تشكله وحدوثه.

وفي إجابة عن تساؤل حول السبيل لتطبيب جروح الذات، يقول المؤلف إنَّ الألم ليس شيئًا سيئًا في المطلق، بل قد يكون فيه من الإيجابيات ما يحمل للمرء السعادة فيما بعد. ثم يعود من جديد للعناصر المتعلقة بالأحداث وأسبابها وسياقاتها ليقول إن ألم أو حزن اللحظة الراهنة ليس بالضرورة نتيجة لموقف آني، بل قد يكون بسبب استدعاء موقف من الماضي عبر الذاكرة؛ وبالتالي لو تفهم المرء أن سبب حزنه الآن موقف مُستدعَى من الماضي لربما تعلَّم أن الماضي قد انتهى وأنه يعيش اللحظة الراهنة، ومن ثم يكتسب مهارة التغلب على الألم. أما عن الألم المتولد عن الإحساس بالندم فيرى المؤلف أن الخطأ خطأ دونما جدال، لكن مواصلة الإحساس بالندم بسبب خطأ تم ارتكابه من قبل يعني أن المرء ما زال ملتصقًا بذلك الخطأ رغم أن وقته وسياقه قد انتهيا، وهذا الالتصاق لا نفع فيه على الإطلاق. وفي

إطار الحديث عن الألم لأسباب متعددة، يأتي ذكر الألم الذي يتسبب فيه الخوف المتولد من الهواجس المتعلقة بالمستقبل الذي لما يأت بعد. صحيح أنه قادم لا محالة، ولكن لماذا الهواجس نحو شيء لم يقع حتى الآن؟ المشكلة هنا أن استدعاء الماضي وما يسببه من حزن، والهواجس من المستقبل وما تسببه من قلق تتم جميعها على حساب اللحظة الراهنة. إنَّ الإحساس بالسعادة مرتبط باللحظة الراهنة، وبالتالي على المرء أن يعيش لحظته وأن يقدم كل ما في وسعه خلالها، هذا هو السبيل الواضح لتحقق السعادة في المستقبل أيضًا.

ينتقل بعد ذلك لنقطة مهمة تتعلق بمسألة الإحساس بالدونية أو الوضاعة مقابل الإحساس بالتعالي والتسامي. ويَرَى أنَّ الصفتين من جذر واحد هو الآخرون. فالمرء يحس بالدونية أو بالتعالي؛ لأنه يضع معايير الآخرين في حسبانه، بل والأدهى من ذلك أنه يجعلها معايير حياته هو. يتعلق بهذه النقطة مسألة الإحساس بالثقة الذي ينبغي أن يكون مصدره التفكير الإيجابي في الذات وموقفها وموقعها مما يحدث لها أو تشارك في حدوثه لا من خلال معايير الآخرين، كما أشار من قبل. إنَّ أحد أهم القوانين في الحياة أن كل ما في الوجود يمر بمراحل الميلاد، ثم النمو والنضج ثم الذبول والموت. هذا لا يسري على الموجودات فحسب، بل وعلى المشاعر والأحاسيس أيضًا. فهي تولد وتنمو وتنضج وتذبل وقد تموت في حركة تشبه حركة الأمواج في لحظتي المد والجزر. هذا الصفات كلها يمكن للمرء أن يحولها إلى عادات، لقد أشار المؤلف من قبل إلى صناعة العادات داخلنا بأيدينا. وبالتالي فإن ما نصنعه بأنفسنا بوعي وإدراك كاملين يظل قابعًا فينا، ومن هنا على المرء أن يصنع العادات الإيجابية التي يعيها حتى تتحول تتدريجيًّا إلى عادات تحدث دونما وعي.

وفي الفصل الثالث -بعنوان «كيف يعيش المرء مع آخرين يفكرون بطريقة مختلفة عنه»- يرى المؤلف أنَّ الصراعات تبدأ من نقطة التشبث بالاختلاف بين المرء وغيره. صحيح أن هذا طبيعي في مواقف كثيرة، ولكن البقاء خلف سياج الذات، كما أشار من قبل، يحرم المرء من التعرف على الزوايا المختلفة التي تكسبه رؤية أو حكمة وثيقة الصلة بإحساسه بالرضا ومن ثم بالسعادة. يرتبط بهذا الأمر ما يتعلق برؤية الآخرين باعتبارهم أخيارًا أو أشرارًا في المطلق، وهذا تقسيم بالغ الخطورة والخطأ. فالإنسان، وكل إنسان، فيه الخير والشر اللذان يصدران عنه حسب المواقف المختلفة، مع التأكيد على أن أفضل الذين نراهم ونتعامل معهم لن يكونوا على ما يرام طوال الوقت. وفي هذا السياق، يؤكد المؤلف ثانية على ضرورة أن يعيش المرء حياته بالطريقة التي يراها لا على نحو ما يراه الآخرون. كما يقول في عبارة موجزة ومهمة إن الأخذ والعطاء المتبادل بين الأشخاص ليس علاقات إنسانية وإنما تجارة، هذا يأتي ضمن حديثه عن الاستعداد أو القابلية للعيش مع شريك الحياة، حيث يركز على أمور مهمة مثل التخلص من الأنانية الفردية والتصرف على النحو الأمثل في المواقف المختلفة، وضرورة الاستمتاع بالحياة من خلال قيام المرء بعمل ما يحبه لأن الحياة بمنطق المسؤوليات وحدها يجعل المرء خاويًا تمامًا. مشاركة الحياة مع شخص آخر تعني ضرورة الوضع في الاعتبار أنك لم تعد منعزلاً، بل لم يعد يحق لك أن تكون كذلك. فضلاً عن أهمية الانشغال بالحياة الخاصة مع ذلك الشريك دون تضييع الوقت والجهد في الانشغال بالآخرين. أهم ما يمكن الختام به في هذا الفصل هو أنَّ التناغم أو التآلف يعتبران أهم قيم بناء أسرة أو حياة ناجحة؛ فالغابة ما هي إلا أشجار تجمعت وتآلفت معًا.

وفي الفصل الرابع بعنوان «لا تبنِ سعادتك على تعاسة الآخرين وسوء بختهم»، فيه أنَّ النجاح الحقيقي ليس الذي نحققه على حساب ذواتنا في صفائها، وعلى حساب الآخرين في إيذائهم. النجاح الحقيقي أن نظل على طبيعتنا المثلى وألا نجرح أحدًا أو ندمره في طريقنا. وعلى المرء هنا أن يكون حذرًا من حدود رغباته في النجاح؛ لأن الرغبة عادة قد تشعل نيرانًا لا يمكن إخمادها دون خسائر فادحة. المشكلة الأكبر أن الرغبات يعقبها عادة طمع يجرف كل ما في طريقه دون هوادة. وهنا يضرب مثالاً باثنين من الصيادين تمكنا من الإمساك بثلاثة أرانب، فكيف سيتم تقسيمها بينهما؟ أهم النقاط التي يمكن أن نختتم بها هذا الفصل هي النقطة التي ذكرها من قبل بشكل آخر؛ الانشغال بالذات لا بالآخرين، وبالتالي فقبل أن تنتقد غيرك، عليك أن تتأمل نفسك وأحوالك ومواقفك، بل والأفضل لك أن تدخر طاقتك لتحسين الصورة التي أنت عليها، لا بتبديدها في النيل من الآخرين.

ويختتم الكتاب بفصل بعنوان «تدريبات لمواصلة العيش في سعادة منذ الأمس وحتى اليوم». بغض النظر عن الأمس المنقضي واللحظة الراهنة، بإمكاننا أن نكون سعداء، بل بتعبير دقيق، أن نختار أن نكون سعداء، وهنا مبرر الجمع بين الأمس واليوم في عبارته السابقة. يرتبط بهذا عدم تضييع الوقت فيما لا طائل من ورائه. واكتساب حكمة أو بصيرة أن ترى الأشياء وسط غبش معاناة العيش وصراعات العالم من حولنا. وهذا يتطلب قدرًا كبيرًا من ترويض الذات على الهدوء الذي يمنح المرء القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ. هذا الهدوء هو المرتكز الذي يدعم اتخاذ القرارات السليمة، فهل يزج المرء بنفسه في صراعات منهكة أم يبحث وينشغل بأخذ المزيد من المزايا في تحسين ذاته وتنميتها؟ هذه القدرة في حاجة إلى هدوء وبصيرة واختيار واع، وكلها في النهاية تشيد جسرًا يمكن تسميته «الاستمتاع» بما نفعله. هذا كله لا يجب أنْ يشغلنا عن مواساة الآخرين وقت حاجتهم إلينا. فمثل تلك المواساة تمنحنا مكافآت مستقبلاً، وتهبنا أفعالاً طيبة نكمل بها مسيرة إصلاح ذواتنا في هذا العالم المادي الذي يصارع فينا إنسانيتنا بكل قسوة، فضلاً عن دورها في رد بعض الديون التي يكفر بها المرء عن أخطاء الماضي.

- الكتاب: «السعادة».
- المؤلف: بوب نيون.
- الناشر: نامو ييه مائم، كوريا الجنوبية، ٢٠١٦م.
- اللغة: الكورية.

* مدرس الأدب الحديث والمقارن بكلية الآداب - جامعة القاهرة
× مدرس الأدب الحديث والمقارن بكلية الآداب - جامعة القاهرة

هل الأيام القادمة أفضل أيام البشرية؟
مناظرات مونك

فاطمة بنت ناصر *

نبذة عن الكتاب :

يتضمَّن الكتاب تدويناً لمُناظرة حيَّة أقيمت في مدينة تورونتو الكندية حملت عنوان: « هل الأيام القادمة أفضل أيام البشرية؟ » وفيها تمت استضافة أربعة من كبار مُفكري وعلماء هذا العصر. تقسموا إلى فريقين هما: فريق مؤيد لمقولة أن الأيام القادمة أفضل للبشرية وفريق مُعارض يرى أنّ القادم لا يحمل الأفضل لسكان هذا الكوكب. كما يستعرض الكتاب آراء الجمهور أيضًا، وذلك عبر عرض نتائج تصويتين لهم تم أخذ الأولى قبل البدء في المُناظرة والثانية بعد الانتهاء منها. ليقيسوا مدى تأثير حجج وأدلة الفريقين على آراء الجمهور.

عن مناظرات مونك :

تنظمها مؤسسة أوريا الخيرية. تأسست في كندا عام ٢٠٠٦ للمتطوعين بيتر وميلاني مونك. الهدف من إنشاء هذه المؤسسة هو تمكين ودعم البحوث المتعلقة بالسياسات والشأن العام وتعزيز مناقشتها على مختلف الأصعدة خاصة العامة منها. ومن هذا المنطلق يتم تنظيم مناظرات مونك بشكل نصف سنوي في لقاء مُباشر يجمع الجمهور بكبار العلماء والمُفكرين.

فريق (نعم) للأيام القادمة وما تحمله لنا

أعضاء الفريق:

سستيفن بنكر (متخصص في علوم الإدراك) له العديد من الإصدارات الناجحة وذات المبيعات العالية ككتاب: the sense of style : the thinking person`s guide to writing in the 21st century . وكتاب : the better angles of our nature وقد حاز هذا الكتاب الأخير على جائزة New York Times Book Review Notable Book of the Year.

مات رايدلي : صحفي متخصص في العلوم وعضو مجلس اللوردات البريطاني. له العديد من الإصدارات كان منها تسعة كتب وصلت إلى القائمة القصيرة لعدة جوائز. ترجمت كتبه لأكثر من ثلاثين لغة وبيع له أكثر من مليون نسخة.

تقوم حجة هذا الفريق على عدة حجج تعتمد على الأرقام والنسب، لعل أهمها تلك التي ذكرها ستيفن بنكر وهي:

الحياة : هناك زيادة ملحوظة وكبيرة في عمر الإنسان. حيث قلَّ معدل الوفيات بشكل كبير عن العصور الماضية.

الصحة: هناك أمثلة كثيرة على تمكن العلم من القضاء على أوبئة كانت تفتك بالناس فيما سبق ولم يعد لها وجود اليوم مثل: الجدري وطاعون الماشية.

الرخاء والرفاه الاقتصادي: قبل قرنين من الزمن عاش ٨٥٪ من الناس في حالة من الفقر المدقع، بينما تضاءلت هذه النسبة اليوم لتكون ١٠٪ فقط. بينما في عام ٢٠٣٠ سيتم القضاء على الفقر نهائيًا حسب مؤشرات الأمم المتحدة.

السلام : الحروب الطاحنة بين القوى العظمى تكاد تنعدم إذا ما قورنت بالماضي. فنرى أن الدول النامية لم تخض أي حرب منذ أكثر من ٧٠ عاماً أما الدول العظمى فلم تخض حرباً منذ ٦٠ عاماً، إلا أن الحروب الأهلية لا تزال مستمرة ولكنها أقل دماراً وأقل عدداً مما سبق. والإحصائيات تشير إلى أن الوفيات من جراء الحروب تضاءلت بمقدار ملحوظ، فبعد أن كانت ٣٠٠ قتيل لكل ١٠٠ ألف في الحرب العالمية الثانية تضاءلت إلى ٢٢ قتيلا في الخمسينيات وإلى ٩ في السبعينيات وإلى ٥ في الثمانينيات وإلى ١,٥ في التسعينيات وإلى ٠,٢ في الألفية (بما في ذلك الحرب البشعة في سوريا التي أعادت النسبة إلى بداية الألفية أي ٠,٢)

الأمن : تراجع معدل جرائم العنف على مستوى العالم.

الحرية: بغض النظر عن الإخفاقات المتفاوتة بين دولة وأخرى، إلا أن مؤشر الديموقراطية العالمي يشير إلى أنّ أكثر من ٦٠٪ من شعوب العالم يعيشون في مجتمعات مفتوحة توفر مناخاً من الحرية وهي النسبة الأعلى والتي لم نبلغها في أي عصر سابق.

من المهم أن نذكر أن هذا الفريق يسند تفاؤله على ثنائية : العلم والاقتصاد. يعلقون عليها الآمال وينتظرون منها الخلاص من المهددات. يدعم هذا الفريق آماله في القادم الجميل من الأيام بعدد وفير من الحجج والأفكار الجميلة التي تلاقي رغم جمال عرضها وقوة مضمونها تحدي ومعارضة الفريق الآخر. كما سنرى في القادم.

فريق (لا) للأيام القادمة وما تحمله لنا

مالكوم جلادويل: صحفي كندي وصاحب عدة كتب حققت أفضل مبيعات حسب New York Times، أشهر كتبه : the tipping point , what the dog saw . يصنف حسب مجلة تايمز ضمن المائة مفكر أكثر تأثيراً في العالم. كما حاز على الجائزة المعروفة لـ National Magazine .

آلان دي بوتون: مقدم تلفزيوني لبرامج وثائقية وكاتب معروف تتسم كتاباته بطابع فلسفي مبسط لمواضيع حياتيه عامة. وقد أطلق على كتاباته مسمى « فلسفة الحياة اليومية». حازت كتبه على أفضل المبيعات في أكثر من ثلاثين دولة. يتبنى مشروعًا لمدرسة تسمى (مدرسة الحياة) مكرسة لنوع جديد ومبتكر في التعليم.

لا تقل حجج هذا الفريق إقناعاً عن الفريق الآخر. يعتقد هذا الفريق أنّ المتفائلين بالقادم والذين ينظرون إلى أن الإنسان يتجه إلى الكمال هم في الواقع لا يرون الوجه الآخر للواقع الذي يعيشونه. فهم يعتقدون أن الفقر الذي يُهددنا هو عدم قدرة البعض على توفير قوت يومه، وفي الواقع أن الأشياء لها معانٍ ووجوه أخرى غير تلك النمطية التي ترسخت في أذهاننا؛ فهناك الكثير من أصحاب الملايين يشعرون أنهم لم يكتفوا من المال ويرون أنهم لا زالوا فقراء في معاييرهم. هذا الفريق يرى أن التفاؤل المبالغ فيه في قدرة العلم والاقتصاد على حل مشاكل البشرية هو مجرد وهم، وأن علينا أن ننشئ فرعاً لفلسفة جديدة تقابل هذه الآراء المتفائلة يدعى: فلسفة الواقعية التشاؤمية، التي أثرت كما يبدو على نقاط ومحاور حججهم فقلصتها إلى أربعة محاور فقط في مُقابل ما يزيد عن عشرة محاور للفريق المتفائل.

رباعية: الجهل، والفقر، والحرب، والمرض

يتحدث هذا الفريق عن رباعية من الأسباب التي تجعل القادم أقل إشراقاً مما نعتقد.

فالجهل يعتبر آفة كبيرة تسببت بالكثير من مآسي

هذا العصر، رغم ما نعتقده من تطور العلوم وإنجازاتها الكبيرة، إلا أن نسبة كبيرة من سكان هذا الكوكب يعانون من الجهل الذي يجعل الكثيرين منهم مسيرين لأنهم لم يتعلموا استخدام «المنطق»! أما الفقر فعلى الرغم من معاناتنا الطويلة من أمراضه المجتمعية والصحية فإن الفريق المتفائل يرى أن ازدهار الاقتصاد العالمي سوف يستطيع القضاء عليه.

وأما الحرب فيعتقدون أنهم يستطيعون أن يخمدوا ما يشعلها وذلك بجعل الدول تتبع القانون وتصبح الدول التي تتبع القوانين الدولية ذات سلطة على غيرها من الدول وبالتالي تكبح كل الحروب والمحتملة منها.

وأخيراً الأمراض التي يعتقد الفريق المتفائل أنَّ القضاء عليها سيكون بالعلاج السحري التي تصنعه الأدوية.

هذه النظرة المثالية لما نحن عليه قد صنعت في الماضي أغلب مشاكلنا الحالية وستصنع المثل في مستقبلنا القادم. وقد نساعد أنفسنا وغيرنا إن أعدنا التواضع إلينا، والذي بالتأكيد سيُغير نظرتنا للعالم. فالعالم المتواضع لن يكتفي بما أنجزه حتى اليوم ولا السياسي المتواضع سيسيئ استخدام السلطة لعرض جبروته وسلطته. التواضع ونفي الكمال سيحمينا من تكرار واجترار الحلول التقليدية والإيمان بأنّ الخير موجود بأيدينا، سيجعلنا نبتكر حلولاً جديدة مختلفة كلياً عما عهدناه وسوف تصنع أملاً في نفوس الشعوب التي ترى الماضي يتكرر في حاضرها بلا توقف.

المناظرة وواقعنا العربي

الكتاب لا يضع أمامك الكثير من الحقائق التي قد تفاجئك لتصادمها مع واقعنا العربي وهي حقائق موثوق بها ونابعة من أصحاب شأن متبحرين في العلوم والمعارف الحديثة التي تتجدد كل يوم. الأمر الذي جعلني أشكك في الكثير من الأفكار والقرارات التي شاعت حتى تم تنميطها وقد تخلف مشاكل كثيرة كان يمكننا تجنبها لو أننا كنا نملك أفراداً ومسؤولين يأخذون المعرفة من مصادر موثوقة. على سبيل المثال: أحد المتناظرين يستعرض موضوع تدخين السجائر الإلكترونية أو ما يدعى بالـ (vaping) نسبة إلى تدخين بخار الماء وقد نسميه اجتهادا (التبخير). يقول بفضل هذه السجائر أقلع أكثر من أربعة ملايين شخص عن التدخين. وهذا إنجاز لم تحققه أية وسيلة توعوية أخذت في السابق. هذا الاختراع الذي لا تتعدى خطورته خطورة كوب من القهوة استطاع تحقيق معجزة لم نحلم بها وأنقذ الملايين. (هون ليك) مخترع هذا الجهاز استطاع بفضل دمجه لعلم الكيمياء والعلوم الإلكترونية أن يأتي بهذا الإنجاز.

توقفت هنا كثيراً رغم أن المتناظر في الكتاب واصل حديثه دون استغراب من أحد. والسبب أنني كنت

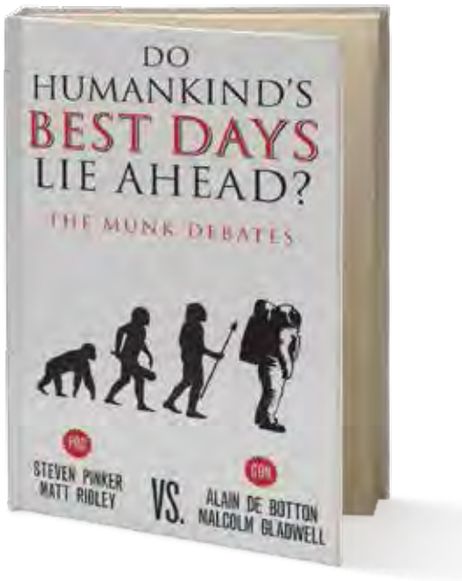

أحمل فكرة شيطانية حول هذا المنتج الذي تحاربه السلطات في الكثير من البلدان العربية وتطبق عليه أغلظ العقوبات لمن يتداوله. فالسجائر الإلكترونية التي تعمل على بخار الماء ممنوعة بينما السجائر المسرطنة تباع في الأسواق! وهنا نرى غياب العلماء عن صنع القرار. العالم تتحدث معلوماته يومياً بينما الفرد العادي اعتاد على الروتين ويخشى الجديد. وبهذا تسهل شيطنة الكثير من الاختراعات المُفيدة بدعوى أنها دخيلة وقد تساعد على ضياع الشباب، بينما تثبت الأرقام أن نسبة المتعاطين والموردين للمواد المخدرة المميتة في ازدياد! وإن كانت هذه الهواجس من مؤامرة الغرب واختراعاتهم التي تسعى إلى ضياعنا، فعلينا أن نلجأ إلى بعض قواعد الحكم العربية، كالتي تقول:

يختار أهون الشرين
درء مفسدة كبرى بمفسدة صغرى

إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما

هناك الكثير من الحقائق التي سيتوقف عندها القارئ العربي مقارناً واقعه بها. وكيف أن للجهل آثاراً مرعبة لن نتجاوزها إلا بالمعرفة وتقريب أصحاب المعرفة والعلم من السلطة واتخاذ قراراتها. هناك عزل واضح وبين بين العلماء وإدارة الدولة في عالمنا العربي. وبالعلماء لا أقصد علماء الدين فهم العلماء الوحيدون الذين تقربهم السلطة أحيانًا وتبعدهم أحياناً أخرى. وكوننا لا ننتج العلوم – هذه مصيبة بالطبع- ولكن المصيبة الأعظم أننا لا نقبل العلوم التي ينتجها الغرب بسهولة وهذا يجعل آثار تأخرنا عن الركب الحضاري أسوأ وأشد وطأة من غيرنا.

أمر آخر مُهم هو في حجج المناظرة والقضايا المتناقشة وإن كانت ذات طابع عالمي إلا أنّ الخلفية التي يستند عليها المتناظرون هي الخلفية الغربية لبلدان صناعية مُتقدمة تعتبر من العالم الأول وليس من العالم الثالث، ولهذا تخيلت لو نقلوا منطلقاتهم من دول العالم الثالث ومشاكلها لربما اختلفت وجهات نظرهم كثيراً، وقد ينتصر الفريق المتشائم بفارق أصوات كبيرة.

لغة المناظرة وأسلوب الحوار:

رغم أنّ بعض الجمل التي مررت عليها كانت تحمل كماً كبيراً من الاستفزاز أحيانا أو السخرية في أحيان أخرى إلا أنني تفاجأت من مبدأ الاحترام المتبادل بين المتناظرين ومواصلتهم للمناظرة دون أحداث لكم أو انسحاب. هذا المشهد الذي يتكرر كثيراً لدينا ويكاد ينعدم لديهم. كما أن الأسلوب المستخدم في النقاش أسلوب سلس وغير متكلف مما يجعل أمر قراءة ملخص المناظرة شيقاً للغاية، فما بالك بمشاهدة المناظرة بالصوت والصورة. وهنا من المفيد أن يقرأ العربي وأن يشاهد هذا النوع من المناظرات من أجل أن نتعلم جميعاً «التواضع» فلا نرى عالماً لا يعرف الوصول إلى عامة الناس بسبب تعاليه ولا نرى جاهلاً يدعي معرفة بعيدة عنه.

نتائج تصويت الجمهور (٣٠٠٠) شخص :

قبل المناظرة :

٧١٪ لصالح نعم (الأفضل في الأيام القادمة وما تحمله لنا)

٢٩٪ لصالح لا (لا تحمل الأيام القادمة الأفضل لنا)

بعد المناظرة :

٧٣٪ لصالح نعم

٢٧٪ لصالح لا

وكما نلاحظ فإنّ نتائج التصويت لم تتغير كثيراً ولكن لهذا التفاؤل الذي تعكسه آراء الجمهور الغربي معانٍ كثيرة منها قدر الأمان والثقة التي ينعم بها سكانُ الدول المتقدمة، مما يجعلهم لا يخشون كثيراً من القادم وما تحمله الأيام لهم طالما أن العلم والمعرفة تكشفان الكثير يوماً بعد آخر والقوة الاقتصادية تحول هذه المكتشفات إلى واقع يجعل الحاضر أجمل والمستقبل أقل رعباً .

وختاماً، يحق لنا أن نتخيل لصالح من سيُصوت الجمهور العربي لو سألناه السؤال نفسه.

كتاب : هل الأيام القادمة أفضل أيام البشرية؟
المؤلف (مجموعة مؤلفين): ستيفن بنكر، مات رايدلي، مالكوم جلادويل، ألان دي بوتون
تاريخ النشر : ٢٠١٦
عدد الصفحات : ١٨٣ للنسخة الإلكترونية – ١٢٨ للطبعة الورقية
اللغة : الإنجليزية

* كاتبة عمانية

كيف ستنتهي الرأسمالية؟ لفولفانغ ستريك

محمد السالمي *

هناك شعور واسع النطاق اليوم أن الرأسمالية هي في حالة حرجة أكثر من أي وقت مضى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فإذا نظرنا إلى الوراء، كان الانهيار الاقتصادي في عام ٢٠٠٨ قد أتى نتيجة لسلسلة طويلة من الاضطرابات السياسية والاقتصادية. وقد أثبتت الأزمات المتعاقبة أن يكون القادم أكثر حدة، وأكثر انتشارا من خلال الاقتصاد العالمي الذي يزداد ترابطاً يوما بعد يوم. كما أصبحت أزمات الرأسمالية في منظمة التعاون والتنمية يُنظر إليها بشكل متزايد على أنها أكثر من مجرد منظمة اقتصادية، مما أدى إلى إعادة اكتشاف المفهوم القديم للمجتمع الرأسمالي، حيث إن النظام الاجتماعي وطريقة الحياة، تعتمد بصورة حيوية على التقدم دون انقطاع في تراكم رأس المال الخاص.

يأتي المحلل الألماني الشهير للسياسة المعاصرة والاقتصاد فولفانغ ستريك «Wolfgang Streeck» في كتابه «كيف ستنتهي الرأسمالية» How Will Capitalism End?»، لعرض سلسلة من المقالات تسلط الضوء على العلاقة الجدلية بين الديمقراطية والرأسمالية، وكيف أنّ الرأسمالية تحتاج لحركات مضادة للعمل والتحسين.ما هي أعراض الأزمة؟ يرى الكاتب أنّ هناك ثلاثة اتجاهات بارزة وتتمثل في: مسارات الأغنياء، والدول الصناعية أو المتقدمة، والدول الرأسمالية غير الصناعية. الأول، أتى نتيجة الانخفاض المستمر في معدل النمو الاقتصادي، والذي تفاقم في الآونة الأخيرة من قبل أحداث عام ٢٠٠٨. والثاني يتمثل في الارتفاع المستمر على قدم المساواة في المديونية العامة في الدول الرأسمالية المتقدمة، فعلى مدى أكثر من أربعين عاما، كانت الحكومات والأسر الخاصة، وكذلك الشركات المالية تواصل مراكمة الالتزامات المالية. الاتجاه الثالث يتمثل في عدم المساواة الاقتصادية، في كل من الدخل والثروة، جنبا إلى جنب مع ارتفاع الديون وتراجع النمو. إنّ الاتجاهات الثلاثة الهامة يعزز كل منها الآخر؛ حيث إنّ هناك أدلة متزايدة على أنّ زيادة التفاوت قد يكون أحد الأسباب في تراجع النمو، ويعيق التحسينات في الإنتاجية وضعف الطلب.تعتبر الرأسمالية خصما للديمقراطية لفترة طويلة، حتى بدا أنّ التسوية ما بعد الحرب قد أنجز التوافق. في القرن العشرين، كان أصحاب رؤوس الأموال خائفين من الأغلبية الديمقراطية في إلغاء الملكية الخاصة، في حين أنّ العمال ومنظماتهم والاتحادات النقابية يتوقعون من الرأسماليين التمويل والدفاع عن امتيازاتهم. فقط في عالم ما بعد الحرب الباردة تمّ التوافق بين الرأسمالية والديمقراطية، ويبدو أنّها أصبحت تتماشى مع بعضها البعض، فكلما كان هناك تقدم اقتصادي، أصبح من الممكن لأغلبية الطبقة العاملة قبول السوق الحرة، ونظام الملكية الخاصة، وهذا بدوره يجعل الحرية الديمقراطية جزءا لا يتجزأ من حرية الأسواق والربح، ويعتمد في الواقع عليها. في هذه الأيام، عادت الشكوك بقوة حول التوافق بين الاقتصاد الرأسمالي مع نظام الحكم الديمقراطي. حيث إنّ هناك شعورا سائدا بين الناس العاديين بأن السياسة لم تعد قادرة على أن تحدث فرقا في حياتهم، كما وردت في تصورات مشتركة من الجمود وعدم الكفاءة، وانتشار الفساد، في الطبقة السياسية.قدمت المؤسسات الحماية لاقتصاد السوق من التدخل الديمقراطي إلى حد كبير في العقود الأخيرة؛ ففي الولايات المتحدة، أصبحت البنوك غير خاضعة للمساءلة المركزية المعنية. كما نجد السياسات الاقتصادية الوطنية في أوروبا، والتي تتضمن تحديد الأجور واتخاذ الميزانية، يتم اتخاذها على نحو متزايد من قبل وكالات فوق وطنية مثل المفوضية الأوروبية والبنك المركزي الأوروبي، والتي تقع خارج نطاق الديمقراطية الشعبية. يطرح الكاتب سؤالاً: هل شهدت الرأسمالية يومها؟ في الثمانينيات، ظهرت فكرة أن «الرأسمالية الحديثة، يمكن تشغيلها كـ «اقتصاد مختلط «mixed economy» أي بمعنى دمج الحرية الاقتصادية مع الرقابة الحكومية والتي أتى بها كينز. وفي وقت لاحق، أتت الثورة الليبرالية الجديدة، والتغير في النظام الاجتماعي والاقتصادي والمناداة للعب الحر لقوى السوق. ولكن مع انهيار عام ٢٠٠٨، انهار وعد الأسواق ذاتية التنظيم وفشل تحقيق السوق التوازن من تلقاء نفسه كذلك.يرى الكاتب أنّه يجب أن نتعلم بأن نفكر في أنّ الرأسمالية تقترب من نهايتها دون أن نتحمل المسؤولية عن الحديث عن البديل الذي يجب أن يحل محلها. لا يجب أن تكون هناك حاجة إلى رؤية طوباوية لمستقبل بديل ولا بصيرة فوق طاقة البشر للتحقق من صحة الادعاء بأنّ الرأسماليّة تواجه المعضلة. في الواقع، كل من المنظرين الرئيسيين للرأسمالية توقعوا انتهاء وشيكا لها، منذ أن جاء المفهوم حيز الاستخدام في منتصف القرن التاسع عشر، وهذا يشمل النقاد الراديكاليين مثل ماركس أو بولاني، وأيضا المنظرين البرجوازيين مثل فيبر، وشومبيتر، وكينز. وبغض النظر عن عدم وجود البديل القابل للتطبيق، إننا لا نستطيع أن نعرف متى وكيف بالضبط سوف تختفي الرأسمالية وما الذي سوف تخلفه. ما يهم هو أنه لا يوجد قوة على اليد التي يمكن أن تعكس الاتجاهات السلبية الثلاثة في النمو الاقتصادي، والمساواة الاجتماعية، والاستقرار المالي. كما أن تصورًا لنهاية الرأسمالية باعتبارها عملية وليس حدثا يثير مسألة كيفية تعريف الرأسمالية؛ حيث إنّ المجتمعات هي كيانات معقدة التي لا تموت في الطريق على عكس الكائنات، باستثناءات نادرة من الفناء التام.يشير الكاتب إلى خمسة اضطرابات تواجهها الرأسمالية اليوم، وتتضمن: الركود، وإعادة توزيع القلة، ونهب الملك العام، والفساد، والفوضى العالمية. كل هذه الاضطرابات تؤدي بطرق مختلفة إلى ضعف السياسية التقليدية والقيود المؤسسية على التقدم الرأسمالي.

إنّ النخب الرأسمالية العالمية ترى أنّ الاقتصاد العالمي يتوجه إلى النمو المنخفض في المستقبل المنظور. وهذا لا يمنع ارتفاع الأرباح في القطاع المالي، وذلك أساسًا نتيجة المضاربة بالأموال الرخيصة المقدمة من البنوك المركزية. ويكمن الخوف من أن الأموال التي ولدت لمنع الركود من التحول إلى انكماش سوف تسبب التضخم. يرى الكاتب أنّ القلق الآن هو مع القليل من التضخم وليس الكثير، ومن المعلوم أنّ الاقتصاد السليم يتطلب معدل تضخم سنوي من ٢ في المائة على الأقل، إن لم يكن أكثر. النمو المنخفض سيؤثر سلباً على الموارد الإضافية لتسوية النزاعات التوزيعية وتهدئة السخط، فهناك فقاعات تنتظر أن تنفجر من فراغ، وأنّه ليس من المؤكد ما إذا كانت الدول ستستعيد القدرة على رعاية الضحايا في الوقت المناسب. كما أنّ الركود الاقتصادي الذي يتشكل سوف يكون بعيدًا عن اقتصاد ثابت، مع تراجع النمو وزيادة المخاطر، والنضال من أجل البقاء على قيد الحياة تصبح أكثر كثافة. وسوف يتم البحث عن طرق جديدة لاستغلال الطبيعة وتوسيع وتكثيف ساعات العمل، وتشجيع الدعوة للمصطلحات المالية الإبداعية، في محاولة يائسة للحفاظ على الأرباح.والاضطراب الثاني، هناك ما يشير إلى أنّ الاتجاه طويل الأمد نحو مزيد من عدم المساواة الاقتصادية؛ فعدم المساواة يخفض النمو، لأسباب الكينزية وغيرها. ولكن المال المقدم حاليا من قبل البنوك المركزية جيد لاستعادة النمو السهل لرأس المال ولكن ليس، بالطبع، للعمالة والذي يضيف مزيدا من عدم المساواة، وذلك بتفجير القطاع المالي والدعوة للمضاربة بدلا من الاستثمار الإنتاجي. لا تزال تعتبر الديمقراطيات، تستحضر كابوس النخب. أغلب الرأسماليين ليس لديهم ما يدعو للقلق بشأن النمو الاقتصادي إذا كانت ثرواتهم تنمو. وهذا ينطبق على هجرة الأموال من دول مثل روسيا أو اليونان أو إسبانيا، الذين يأخذون أموالهم، لسويسرا، أو للمملكة المتحدة أو الولايات المتحدة.والاضطراب الثالث هو نهب الملك العام من خلال نقص التمويل والخصخصة. قام فولفانغ بتتبع عدة أماكن لمعرفة مراحل هذا الاضطراب، وذلك من الانتقال المزدوج منذ السبعينيات من مرحلة الضرائب إلى الديون، مرورا بمرحلة تقشف الدولة. ومن أهم أسباب هذا التحول كانت عبر فرص جديدة من خلال أسواق المال العالمية منذ الثمانينيات من خلال فرض الضرائب للطيران، والتهرب الضريبي، والابتزاز من التخفيضات الضريبية من الحكومات على حساب الشركات وأصحاب المداخيل المرتفعة. إن محاولات إغلاق العجز في المالية العامة تعتمد بشكل شبه كامل على تخفيضات في الإنفاق الحكومي على حد سواء في الضمان الاجتماعي والاستثمار في البنى التحتية المادية ورأس المال البشري. حتى قبل عام ٢٠٠٨، كان من المسلّم بأن الأزمة المالية للدولة ما بعد الحرب كان لا بد من حلها عن طريق خفض الإنفاق بدلا من زيادة الضرائب، خاصة على الأغنياء. وتم توطيد المالية العامة عن طريق التقشف وفرضها على المجتمعات وهذا من المرجح أن يخفض النمو. أما الاضطراب الرابع للرأسمالية المعاصرة فهو الفساد. تطرق الكاتب هنا حول الأسس الأخلاقية التي تبنى عليها الرأسمالية، كما تطرق لتفسير ماكس ويبر Max Weber ومناصريه حول الرأسمالية والجشع، لافتا إلى ما يعتقد أن أصولها في التقاليد الدينية للبروتستانتية. ووفقا لويبر، فإن الجشع موجود في كل مكان وفي جميع الأوقات، وليس فقط هو سمة مميزة للرأسمالية. الرأسمالية لم تستند على الرغبة في الثراء، ولكن على الانضباط الذاتي والجهد المنهجي، والإدارة المسؤولة، وإلى التنظيم العقلاني للحياة. يرى ويبر أنّ القيم الثقافية للرأسمالية تتلاشى لأنّها نضجت وتحولت إلى «قفص حديدي»، حيث التنظيم البيروقراطي والقيود التي تفرضها المنافسة سوف تحل محل الأفكار الثقافية التي كانت تخدم في الأصل لقطع تراكم رأس المال في كل من الاستهلاك المادي وغرائز الاكتناز. كما أنّ التمويل هو «صناعة»، حيث الابتكار من الصعب تمييزه عن الخضوع للحكم أو انتهاك القواعد؛ حيث تلقي الرشى من الأنشطة شبه القانونية وغير القانونية مرتفع بشكل خاص. إن أكبر الشركات ليست فقط أكبر من أن تفشل، ولكنها أيضا كبيرة جدا إلى السجن، نظرا لأهميتها بالنسبة للسياسة الاقتصادية الوطنية وعائدات الضرائب، وحيث إن الخط الفاصل بين الشركات الخاصة والدولة هو أكثر ضبابية من أي مكان آخر، كما يتضح من خطة إنقاذ ٢٠٠٨. كما أننا نرى وكالات التصنيف تقوم بمنح أعلى الدرجات بمقابل مادي، والظل المصرفي في الخارج، وغسيل الأموال والمساعدة في التهرب الضريبي على نطاق واسع، وصولا في التحكم في أسعار الفائدة والذهب.نأتي أخيرا إلى الاضطراب الخامس. الرأسمالية العالمية تحتاج إلى مركز لتأمين المنطقة المحيطة بها وتزويدها بالنظام النقدي ذي المصداقية. في العشرينيات من القرن الماضي، كان يقوم بهذا الدور بريطانيا، ومنذ عام ١٩٤٥ وحتى ١٩٧٠ انتقل هذا الدور للولايات المتحدة. فالعلاقات المستقرة بين عملات الدول المشاركة في الاقتصاد الرأسمالي العالمي ضرورية لتدفقات التجارة ورأس المال عبر حدود الدول. تعاني الرأسمالية المعاصرة على نحو متزايد من الفوضى العالمية؛ لأنّ الولايات المتحدة لم تعد قادرة على خدمة دورها بعد الحرب العالمية الثانية، وبناء نظام عالمي متعدد الأقطاب. مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يقع أية اشتباكات مباشرة بين القوى العظمى. كما أن هناك من يطعن بأخذ الدولار كعملة احتياط دولية، ونظرا لتدهور أداء الاقتصاد الأمريكي، ومستويات ارتفاع في الدين العام والخاص، والتجربة الأخيرة من الأزمة المالية، يجب البحث عن بديل دولي، وربما يكون على شكل سلة عملات.

الرأسمالية المعاصرة آخذة في التلاشي من تلقاء نفسها حسب وصف فولفانغ، وكتابه هذا يقدم رؤية واسعة في أسباب الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المترابطة. كما يعرض وجهات النظر المختلفة التي تقال لنا من قبل السياسيين ووسائل الإعلام حول الرأسمالية، داعماً بالحجج والأدلة. وقد لاقى الكتاب استحسان القراء والنقاد من ذوي الاختصاص.

الكتاب: كيف ستنتهي الرأسمالية؟
المؤلف: فولفانغ ستريك
اللغة: الإنجليزية
عدد الصفحات: ٢٧٢ صفحة
الناشر: Verso Books (Nov 8. 2016)

* كاتب عماني

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.
مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net